دعاء عبد الرحمن

رواية

وَقالتْ لي!

دعوة لفهم العالم الآخر



وقالــت لي

رواية

دعاء عبد الرحمن



إهــــداء

إلى كل من لا يعتقد أنه يمتلك الحقيقة الكاملة وحده

افتتاحية

قد تعتقدونها مُجرد حكاية

وقد ترونها دعوة لفهم العالم الآخر!

وصية بين القبور

ما الذى جاء بها إلى هنا ؟!

مضت ستةُ أشهرٍ على وفاته فى حادثٍ سيرٍ مُروعٍ، بعد أن اخترقت حنجرته أسياخٌ حديدية كانت مُحملةً فوق الشاحنة التى تسبق سيارته ونفذتْ للاتجاه المقابل. إلى متى ستظل تُفرغ نفسها لتقاعسها عن حضور جنازته ؟، هاهى وكما تفعل أسبوعيًا، تأتي إليه وتجلسُ على حافة قبره بانحناءة مبالغة إلى الأمام، ملابسها السوداء الطويلة كقامتها مُتغبرٌ ذيلها بغبارِ المقبرة، وتعتذر .. تعتذر عن كل شيء .

كيف تحضر جنازته وهي التى قتلته ؟!، ألم تكن هى التى أصرت على أن يقلّها إلى حفل زفاف زميلتها فى العمل. ماذا لو كانت أطاعت والدتها ولم تذهب إلى الحفل، هل كان هذا كفيلًا لبقائه حيًا يملأ البيت دفئًا وحيًا كما هى عادته دومًا، هل تستطيع أن تنسى جحوظ عينيه، وهو يرتعشُ ودماؤهُ تنزفُ حول الأسياخ التى أصبحت هى وجسده الطويل قطعةً واحدة. لماذا لم تمتْ هى الأخرى لترتاح أسرتها من شؤمها؟، هذه هى عبارة والدتها دومًا منذ أن وقع هذا الحادث المشئوم، تُسمعها إياها كل ليلةٍ وهى تصرخ محتضنةً صورته المؤطرة، وهل تحتاج

إلى صورته ؟، ملامحة منقوشةً بداخلها على الدوام، عيناه شغوفتان تبرق كلما ابتسم، شعره الرمادي بفعل السنين لم يزده سوى جاذبية في عيني شريكة عمره، وابنته التي تعشق حنانه النادر وهو يناديها باسم جدتها المحبب لها .

تمسست رؤى ثرى القبر الندي بأناملها وهي تهمس بألم:

– أبي، صدقني لو عادت تلك اللحظة لما خرجت إلى ذاك الحفل أبدا، لكنت أطعتُ والدي، أبي أحتاجك، أحتاج مساندتك، منذ رحيلك وأمي تكرهني، بيتنا لا يُطاق بدونك، أنا لا ألومها، أنا ..

قاطعتها نحنحة متحشرجة مرتبكة آتية من خلفها، التفتت عاقدةً حاجبيها متوترة بتوجس فاصطدمت عيناها بامرأة نحيلة تقف عند باب المدفن ورغم المشقة البادية عليها إلا أنها تقفُ باستقامةٍ واعتزاز وكأنها قد حازت للتو نصراً ما، تعدل وضع نظارتها الشمسية القاتمة بتلكؤ وقيظ حرارة الصيف جعل جبينها ينفصدُ عرقاً وهي تمسحه بمحرمة ورقية بيضاء. نهضت رؤى من مجلسها بجوار القبر تنفضُ ثوبها وتقدمت نحوها بارتياب، صعدت المرأةُ درجة السُلم التي فصلت بينهما وتنحنحت مرةً أخرى قائلةً بهدوء، لا تعرف كيف تبدأ حديثها:

– احمم، أعتذر عن تطفلي، ولكن ..

صمتت مرة أخرى وقد نال من نبرتها بعض الارتباك قبل أن تحسمَ أمرها وهي تمد كفها قائلةً بحسم:

- آنسة رؤى أعرفك بنفسي، أنا هالة

انعقد حاجبا رؤى أكثر وهي تنظر إليها بشك، من هذه؟ وكيف تعرفها ؟! نظرت إلى كف هالة الممدود نحوها ثم عاودت النظر إليها متسائلةً:

- هل تعرفينني ؟!

سحبت هالة كفها بتفهم وقالت بابتسامة مرتعشة وهي تنزع نظارتها ببطء:

- لدي طفلتان توأمتان في دار الروضة التي تعملين بها، جنى و لجين لو تذكريهما، تتكلمان عنكِ بحروفهما المتعثرة تلك طوال الوقت، معي !!

لا تعلم رؤى لماذا قالت المرأة الكلمة الأخيرة بنبرة خاصة وهي تضغط حروفها وكأنها تؤكد وحدتها مع طفلتيها لوقت طويل، ولكن كيف عرفت بتواجدها الآن عند قبر والدها؟! ورغم اضطرابها حركت رأسها بتذكر محبب وهي تقول:

- نعم، بالطبع أذكرهما، فلديهما ابتسامة حلوة تُذهب عني عناء مشاكستهما التي لا تنتهي .

ضحكت هالة بخفوتٍ ضحكةً صغيرة ثم ربتت على مرفقيها بتوددٍ قائلة:

- أعانك الله حبيبتي، فأنا أعاملهما بصعوبة في المنزل، لا أعلم كيف تتحملين التدريس لكل هذا العدد من الأطفال، وخصيصًا أن منهم عددًا كبيرًا لديهم صعوبة في النطق مثل جنى و تُمين.

فتحت فمها بحماسة لتتكلم عن شعورها بالفخر عندما وهي تدربهما على نطق الحروف نطقًا صحيحًا ولكنها صمتت في اللحظة الأخيرة ونظرت للخلف نحو القبر وهي تؤنب نفسها بقوة. كيف لها أن تبتسم هكذا بعد أن كانت تخنقها العبرة والذنب منذ قليل؟، هل سمعها؟، هل هو غاضب؟!

لاحظت هالة شرودها وصمتها الذي طال وشحنات التوتر البادية على حركات كفيها وهي تفركهما ببعضهما البعض، فحمحمت شدات نفسها قليلًا وتوجهت نحو الدرج الحجري المرتفع بعض الشيء بجوار مجموعة أزهارٍ ذابلة ملقاة بإهمال وجلستْ بأريحية وقد قررت الكشف عن سبب وجودها في هذا المكان. تقدمت رؤى باتجاهها وهي تفكر في كيفية صرفها بلباقة، فهي مازالت تود مصاحبة والدها بعض الوقت، ولكن هالة فاجأتها بأن أشارت إلى المساحة الشاغرة بجوارها وهي تقول بنبرةٍ حملت رجاءً من نوعٍ خاص:

- هل من الممكن أن نتحدث قليلًا، من فضلك؟

أطاعتها بعض النزر وهي تجلس بجذعٍ منحنٍ للأمام قليلًا، تكاد تلامس الدرج الحجري لمسًا مستندةً إليه بكفيها معتمدةً عليهما وكأنها

متاهبةً للقفز واقفةً في أية لحظة. رفعت هالة نظارتها فوق حجاب رأسها الرمادي، ملأت رئتيها بالهواء بقوة والذى حمل لها نفحةً من رائحة الليمون المُنعش، ثم زفرت ببطءٍ واضعةً جميع انفعالاتها في تلك الزفرة ثم التفت إليها، وبخفوتٍ، ونبرة لفحتها الرعشة رغمًا عنها، قالت:

– اعرف، أنا متطفلةٌ وفضولية في نظرك الآن، ولو كان الوقت بيدى لكنت تركت باب صداقتنا مواربًا تفتحه الأيام والمناسبات بروية، ولكنى مضطرةٌ للقفز فوق كل تلك الاعتبارات، فأنا أسابق لحظاتى الأخيرة.

التفتت رؤى بحركة حادة نحوها وقبل أن تُعلق متسائلةً تابعت هالة وهى تنظر في عينيها بثباتٍ:

– عندما رأيتُكِ قدرًا منذ شهر تقريبًا عند بداية منعطف المدافن تعرفتُ عليكِ بسهولة وحاولت التحدث معكِ ولكنى خجلت، وبشكل غير مقصود سرت خلفكِ، فمدفننا الخاص بعائلتنا في المنعطف التالى مباشرة، وشاهدتك وأنت تدلفين هنا، فعلمت بأن هذا المدفن يخص عائلتك.

صمتت مجددًا تلتقط قوتها مع أنفاسها ورؤى تتجاذب أطراف الصمت معها تنتظر التتمة لهذا الحديث المُريب بالنسبة لها ولتعلم كيف عرفت هالة بمكانها الآن، بينما أردفت هالة بشرود:

- حاولتُ أيضًا فتح أى حديث معك عندما كنت آتى لاصطحاب بناتى من دار الروضة، ولكن شحوبك الذى يزيد يومًا بعد يوم جعلنى أتراجع، و..

تخشرج صوتها وقد خنقتها غُصة مُسنة وهى تستطرد:

- و خفت أن أبكى منهارة أمام بناتى فأفزعهما

مدت رؤى كفها لتربت على كتفها بتعاطف فما استطاعت سوى أن تلمس ساعدها بأناملها وهى تقول بخفوت:

- هونى عليك

شعرت من داخلها بتصدع كلمتيها ولكن ماذا بيدها أكثر من هذا، إنها حتى لا تفهم لما اختارتها تلك المرأة لتفرغ أمامها ما يجمعتها من أحزان، لماذا يسلك الهم دومًا دربها مهما اختلفت بهما السُبل

قاطع سيل أشجانها صوت هالة وهى تمس معطرقةً برأسها:

- أنا آتى إلى هنا أسبوعيًا، أتفقد قبرى!

إتسعت عيناها دهشةً وانقبض صدرها وهالة تتابع دون توقف:

- لاحظتُ أنكِ تحضرين إلى هنا أسبوعيًا أيضًا، وفى كل مرةٍ كنتُ أمرُ بك ولكنكِ لم تلحظينى وأنتِ غارقة فى أحزانك، تتحدثين إلى والدك

وقفت رؤى وهى تشد على حزام حقيبتها فوق كتفها مصدومة، هل سمعت إليها أم هو مجرد تخمين؟! ثم ما حكاية قبرها ذاك، امرأة غريبة ربكتها بشدة!، تبعتها هالة ناهضة هامسة بعبارات متفرقة برجاء:

– سامحينى، لم أقصد التلصص عليك، وجدت بك ضالتى، أرجوك اسمعينى للنهاية

***

كانت رؤى تنظر إلى الطريق فى جلستها بجوار النافذة فى سيارة الأجرة التى استقلتها منذ قليل للعودة إلى منزلها بعد أن ودعتها هالة وانصرفت منكسة الرأس منتظرة ردها بيأس!، اهواء يلفحها تاركة العنان لدموعها التى تهطل كأمطارٍ غزيرة بلا توقفٍ يُذكر، لماذا قالت لها " سأفكر" ؟! لقد كان طلب هالة منطقياً فى مثل حالتها تلك ولكن ردها هو الذى أذهلها حقًا، المرأة مصابة بمرضٍ خبيث وتعلم أنّ مكوثها بين الأحياء الآن أمرٌ مؤقتٌ، تسعى لتأمين آخرتها بكل تلك الأعمال الصالحة التى انغمست فيها منذ علمها بمرضها بما فيها زيارة قبرها لتتزود به فتعلو همتها للإكثار من الطاعات قدر استطاعتها، كما تسعى لتأمين أم حنونٍ لبناتها الصغار، وكما أخبرتها لقد وجدت بها كل ما كانت تنشده فى تلك الأم. لقد كانت هالة صريحةً إلى أبعد مدى عندما سألتها رؤى لماذا ظنت بأنها ستوافق على عرضها ذاك وقد كانت إجابتها وافية وهى تهمس بخجلٍ من نفسها:

- فى المرة الأولى عندما استمعتُ إليكِ رغمًا عنى وأنت تتحدثين إلى والدكِ، ظننت بأنكِ مجرد فتاةٍ حزينة على رحيل أبيها، وكنت فى كلِّ مرةٍ آتى لأتحدث إليكِ أتراجع فى آخر لحظةٍ، فأستمع إليكِ وأنت تكررين نفس الحديث، تلومين نفسكِ وتشتكين من سوء معاملة والدتك لكِ، تتحدثين عن نفسكِ بيأسٍ وعن زهد الخطاب بكِ وعن كرهك لتلك الحياة، وكأنكِ اكتفيتِ منها، فوجدتُ بكِ ضالتى، بناتى يحبونكِ للغاية وأنا وحيدة وليس لى عائلة غير زوجى وطفلتىّ، فلمن سأترك بناتى إلا لامرأة أطمئن عليهما بصحبتها، ثم أن زوجى ليس له سوى أمّ عجوز وشقيقة كبيرة بالسن وتعيش مع عائلتها الصغيرة فى منزلٍ بعيد عن منزلنا، لها طبعٌ نزق بعض الشىء ولن تتحمل تربية صغارى. وفى كل الأحوال سيبحث زوجى عن زوجةٍ و أم بديلة، فلماذا لا تكون أنت ؟

لم تستطع رؤى تحمل نظرة الرجاء المتوسلة من عينى هالة المختنقة بالدمع وهى تهمس بنبرة اختلط بها الحزن بالواقعية التى تعيشها هالة الآن:

- ما أسمعه من بناتى عنكِ يوميًا، يجعلنى لا أرى لهما غيرك، أرجوكِ لا تخذلينى، لا تخذلى شبح امرأةٍ مثلى على مشارفِ الموت، أخشى على صغارى الضياع أو زوجة أبٍ قاسية، إن وافقتِ سنتقابل هنا

الأسبوع القادم، وكل أسبوع سيأتي حتى تحين لحظتي، وسأخبرك بكلّ ما تريدين معرفته عن بيتي وعائلتي لتستطيعين التعايش معهم بسلامةٍ من بعدي، وسأخبر أمّ زوجي عنكِ، فهي في كل الأحوال تبحث له عن زوجةٍ أخرى منذ أن علمت بمرضي !.

تنبهت حواس رؤى عندما ناداها السائق بأنها قد وصلت إلى وجهتها المنشودة، فتحركت باضطرابٍ وهي تترجل من السيارة. نقدت السائق أجرته والذي تلقاها بتذمرٍ وهو يقيمُها بنظرةٍ حانقة قبل أن يطلق همهمتًا بكلماتٍ لم تسمعها بوضوحٍ بل لم تهتم لسماعها من الأصل. استدارت لتدخل البناية القديمة التي تقطن بطابقها الأرضي والتي تحتل منتصف ذاك الشارع العتيق تمامًا فاصطدمت عيناها بصورتها المعكوسة على زجاج سيارة كانت تقف أسفل البناية تنتظر صاحبها، رغم عدم وضوح الصورة جيدًا إلا أنها عكست ما تراه دائمًا في مرآتها الخاصة، عظمتا خديها واضحتان للغاية من شدة نحول وجهها، شعرها الخفيف التي تجمع شق غرته الطويلة للخلف مع بقية شعرها بينما تترك الشق الآخر مسدلاً فوق نصف وجهها الأيسر لعلها تداوي ذلك النحول الظاهر عليها، عيناها الباهتتان الرماديتان الشبيهتان بعيون الأموات!، لا حياة بهما مهما جملت حوظهما بالأصباغ

استندت إلى مقدمة السيارة وهى تفكر بشرودٍ رافعة رأسها لأعلى قليلاً، تركز بصرها على نافذة غرفة والدها اللامعة وكأنه لم يهجرها يومًا، ومواجهة مروعة بداخلها تطحن أنوثتها بغير هوادةٍ:

- واجهى نفسك يا رؤى، هل قلت لها " سأفكر " لتطمئنيها فقط وتجعليها تنصرف، أم أنك قد وجدتها فرصةً للهرب من هنا، من ذكرى والدك الذى قتله عنادك أيتها الحمقاء، فرصةً للهرب من والدتك، بل من أشلائها التى مازالت تتنفسُ قربك تذكرك بقتل حبيبها وزوجها كلّ يوم وكل دقيقة أيتها القاتلة، فرصة للهرب من عزوف الرجال عنك أيتها الدميمة .

صرخة أخرجتها من كل هذا، صرخة تعرفها جيدًا، وقبل أن تعود برأسها للأسفل كانت جميع النوافذ فُتحت وأطلّ منها جيرانها، سُكان الطوابق التالية فى بنايتها وفى البناية المقابلة لها. ألم يملوا بعد؟!، لقد حفظوا تلك الصرخة الصادرة عن والدتها التى أصبحت يُلقبونها بالمجنونة والملبوسة، وقبل أن يغلقوا نوافذهم عائدين إلى الداخل انطلقت الكلمات الحانقة من حناجرهم متداخلةً مختلفة ولكنها جميعها بمعنى واحد " الأمرُ بات غيرَ محتمل "، " لابد وأن ترحل تلك المجنونة من هنا هى وابنتها تلك "، " شقتهم تلك مسكونةٌ لا محالة ".

خطت ببطء وتلكؤ داخل البناية وهى تتبسم بسخرية بائسة مهمهمةً:

- تذمروا كما شئتم، هل ستقاطعوننا مثلاً ؟! نعيش وحدنا لا يزورنا أحدًا ولا يسأل عنا عابر، نعيشُ كالعناكب !

ومع أول خطوة لها بداخل البناية لاحظت إحدى جاراتها تهبط السُلم مسرعةً وهى تلُف وشاحًا قاتمًا كبيرًا حول رأسها بطريقةٍ غير مهندمةٍ وجسدها الضخم يهتز بشدةٍ بداخل جلباب المنزل الفضفاض الحالك مع سرعة خطواتها الثقيلة وصوتِ صلصلة أساورها الذهبية الكثيرة حول يديها تُحدثُ رنينًا مسموعًا ومنبئًا عن هوية صاحبتها مما جعل رؤى تُسرع الخطى نحو شقتها، ولكنها لم تُكمل خطوتها التالية بعد عندما تسمرت قدماها وهى تسمع صياح المرأة بصوتها الغليظ مناديةً:

- انتظري مكانك

ابتلعت رؤى غصتها وهى تعلم ماذا ينتظرها على يد جارتها تلك التي لم ترحمها عندما أوقفتها الأسبوع الماضي، وها هي تعاود كرتها ولكن يبدو أنها هذه المرة أكثر غضبًا من سابقتها، حاولت أن تبدو متماسكةً وهى تستدير نحوها ببطءٍ، وقبل أن تكمل استدارتها شعرت بقبضة المرأة تلتف حول ساعدها النحيل وتديرها لتواجهها هاتفةً بحنقٍ:

- ماذا فعلتِ فيما اتفقنا عليه الأسبوع الماضي؟

بللتْ رؤى شفتيها بطرف لسانها وهى تنتزعُ ساعدها بحذرٍ من قبضة المرأة وهى تُجيبها باضطرابٍ:

- خالتي، نحن لم نتفق، أنت أمرتني بأن أخلي الشقة، وأنا ليس لدي بديل، ماذا بيدي أن أفعل..

قاطعتها المرأة صالحة وقد اشتدت عقدة حاجبيها وتطاير الشرر مع تطاير نظراتها الحادة:

- أنا لستُ بخالتك أيتها البائسة، ولا تتحججي بالبديل، فلقد عرضتُ عليكِ شقة أخرى تؤجرينها في مكان آخر، ولكنك تماطلين

فتحت رؤى فمها لتتكلم ولكن المرأة لم تسمح لها وهي تزجرها بلا رحمة:

- أم تراكِ سعيدة بأحفادي الصغار وهم يجرون إلى السلم جرياً برعبٍ، خوفاً من شقتكم والصراخ الصادر منها مرةً بعد مرة

أطرقت برأسها والاحساس بالذنب يلتهمها التهاما متخيلة الصغار وهم يهرولون من باب البناية وحتى درجات السلم بخوف، ولكن من يضمن لها إن قبلت عرض المرأة وانتقلت إلى الشقة الأخرى التي عرضتها عليها أن لا يضجر منها جيرانها الجدد هناك ويفكرون بطردها هم أيضاً.. لماذا سيتحملون صراخ أمها وهم لا يعرفونها بينما من تربت بينهم وكبرت لم يستطيعوا تحملها!، من كانوا يصافحون والدها بابتسامة وِدٍ وترحابٍ عند اللقاء، ويربتون على شعرها وهي في يده، تخلوا عنها وصدقوا أن شقتهم مسكونةٌ بشبحه وأنّ والدتها ملبوسةٌ. فكيف بجيرانٍ

آخرين، ماذا سيفعلون بنا؟. ووجدت نفسها مضطرةً على تكرار نفس الكلمة للمرة الثانية في هذا اليوم العريب فأومأتْ برأسها متمتمةً:

- سأفكر

رفعت المرأة سبابتها في وجهها محذرةً وهي تقذفُ الكلمات بوجهها وكأنها رصاصاتٍ محترقة:

- اسمعي، لقد نفذ صبري، ومن الواضح أنك لا تعرفيني جيدًا بعد. إن لم تفعلي ما آمرك ستجدين أمك ملقاةً في مشفى للمجانين بين يوم وليلة، و..

- فتحية !!

نداءٌ حانق جعلهما يلتفتان نحو مدخل البناية، عقدت فتحية يديها فوق صدرها بتبرم وهي تنظر إلى زوجها القادم نحوهما بجسده الضخم وعمامته التي يرمي طرفها المتدلي دائمًا على كتفه متمهلاً وهو ينظر نحو زوجته معاتبًا وما أن وقف قبالتهما حتى رفع يده وربت على كتف رؤى قائلاً بحنو:

- ادخلي بيتك يا بُنيتي الآن

تنفست رؤى الصعداء وهي تستديرُ مُسرعةَ الخطى نحو شقتها تلتقط أذناها أطرافَ حديث الزوج الحانق وهو يؤنبُ زوجته على ما تفعله بالفتاة اليتيمة ورد زوجته الأكثر حنقًا وهي تحاول إقناعه بعدم

الدخل، ولجت إلى شقتها واستندت بظهرها إلى الباب بعد أن أغلقته خلفها مغلقة عينيها براحة، تستعد للجولة القادمة لتلقى نصيبها اليومى من صراخ أمها، وشبح والدها !

الشقة هادئة أكثر من اللازم، أمر مقلق بالفعل. التفتت تنظر نحو غرفة مكتب والدها فوجدتها مغلقة لا تظهر أىّ إضاءة من أسفل بابها. توجست بعض الشيء وهى تجر قدميها إلى غرفتها، ووقع أقدامها تذكرها بأن تخلع حذاءها قبل أن تتوغل أكثر فينالها ما ينالها دونما سببه. تخلت عن حذائها جانبًا وتقدمت لتفتح باب غرفتها وعندما فعلت وأطلت برأسها للداخل بترقبٍ مستمعةً إلى صوتِ قماشٍ يتمزق علمت أنه يخصها قبل أن تراه. اتسعت عيناها وهى تنظر إلى والدتها التى تمسك بأحد المقصات الحادة وتفصل أزار تنورتها الجديدة عن قماشها بعد أن مزقت السحابة والجزء الذى يليها، فهرولت للداخل وهى تهتف بحنقٍ قبل أن تحاول جذب التنورة من بين يدي والدتها :

- ماذا تفعلين بملابسي يا أمي، أرجوكِ اتركيها

قبضت والدتها بقبضتيها المكتنزتين المتجعدتين واللتين تهتزان قليلًا فوق قماش التنورة الزرقاء الطويلة ثم رفعت وجهها المستدير التى تتوسطه عيناها الحادتان، ونظرت إليها نظراتٍ مهتزة مشتعلة يدفع فيها نظارة ذات حافاتٍ معدنية سوداء قاتمة وتفحصتها بنظراتٍ جمعت بين الحدة والاضطراب متسائلةً:

- هل نفضت قدميك قبل أن تدخلي البيت؟

حاولت رؤى جذب تنورتها مجددًا وهي تغصّ بضيق وتكاد تبكي

- نعم فعلت، والآن من فضلك اتركيها، ليس مجددًا، ليس مجددًا أمي.

وكأن قبضتي والدتها تحولت إلى كلابتين متشبثتين بالتنورة وتجمدت عيناها وهي مازالت تتفحصُ عيني رؤى بكُره سافر وتحبُ من بين أسنانها التي تطحنُها بقوة

- مازلت تخططين لخلع السواد أيتها القبيحة، وغدت لعطرك المُقرف والمقزز مثلك، لن تنالي ما تريدين أبدًا وأنا على قيد الحياة

احمرت دمعاتها فوق وجنتيها بقهر وهي ترى التنورة تتمزق بالفعل بينهما فتركتها مُرغمةً وانهارت فوق فراشها صائحةً بانفعال:

- لقد مزقت جميع ملابس أمي، لم يعد لي شيءٌ سوى السواد لأرتديه منذ شهور، إنها فقط تنورة أمي، مجرد تنورة جديدة لا أكثر

جاءتها الإجابة على شكل صوت تمزيق آخر قضى على آخر أملٍ لها في إصلاحها وارتدائها ولو لمرة واحدة، منذ أسبوع ابتاعتها وخبأتها جيدًا أسفل فراشها حتى لا ينالها ما نال سابقتها ولمْ تتجرأ من يومها على إخراجها من مخبأها، وها هي تراها مُهلهلةً أمام ناظريها لا حول لها

ولا قوة، رفعت عيناها إلى والدتها التي تخرج من غرفتها بانتصار والتشفي وعندما التقت عينيهما أعادت والدتها خصلة بيضاء اشتعلت بالشيب خلف أذنها وعدلت من وضع نظارتها مغمغمة:

- لا أعلم لم لا تموتين ونرتاح من شؤمك هذا ؟.

ألقت عليها نظرةً متقززةً وهي تخرجُ من الغرفة بقدميها الحافيتين التي ساهمت في إبراز قصر قامتها وصفعت الباب خلفها بعنفٍ. وماهي إلا لحظاتٌ حتى دوى الصراخ في جميع أنحاء المنزل، صراخٌ تكاد الجدران تتصدعُ من عنفه وقوته، الصراخ يعلو ويعلو بشكلٍ مخيف، خافت أن تخرج من غرفتها، اكتفت بأن وقفت خلف الباب مستندة إليه بظهرها وصدرها يعلو ويهبط بجنون والخوف يشل أطرافها، وبحركة غريزية مدت يدها وأوصدت الباب من الداخل محتميةً به من تلك الموجة التي تكاد تصم أذنيها على الجانب الآخر من الباب. جرت نحو فراشها تضم ساقيها لصدرها وتضع كفيها فوق أذنيها وتضغطهما بقوة، لا تريدُ أن تسمع، لا تريدُ أن تشعر، بل لا تريدُ أن تحيا. ولكن هل تتركها تصرخ هكذا؟، ماذا لو حدث لها مكروهٌ، ماذا لو اختنقت وماتت من فورها؟، لا .. لابد من أن تُسرع إليها مهما كانت العواقب التي تعلم عنها مُسبقًا وعن تجربة كم هي موجعةٌ، وقبل أن تهب من فوق فراشها بلحظةٍ واحدة سكت كل شيء، لم تندهش فهي تعلم بأن والدتها قد انتهت كالعادة من تفريغ شحنة جنونٍ تمر بها يوميًا ثم تهدأ تمامًا إلى أن يحدث

ما يخوها مرةً أخرى بأي شكلٍ من الأشكال لتعود العاصفة تضرب وجهها وأذنيها مرةً أخرى، خطوات أخرى وسمعت طرقاتٍ خفيفةً على الباب يصحبها صوتُ والدها هادئًا بشكلٍ ظاهري، يخفي ارتعاشًا بين ثناياه:

- والدك يُريدك في غرفة مكتبه !!

تنهدت بضجرٍ وهي تنهض بتعبٍ من فراشها متجهةً نحو باب غرفتها، لقد نصحها أحد الأطباء الذين أخذت بمشورتهم عن حالة والدتها أن لا تستسلم وتنصاع لهلاوس أمها التي تتخيلُ والدها مازال على قيد الحياة، ولكنها ببساطةٍ لم تستطع!، شيء ما بداخلها يصدق بوجود أبيها الوهمي بينهما، يرغب بتصديق بقائه، بأنه لم يرحل ويتركها، ذاك الشيئُ الغامض يكبرُ بداخلها كلَّ يوم وربما هو من جعلها تتوانى في الإصرار على علاج والدتها !

وفي طريقها للخارج مرت بغرفة نوم والديها ولقد كان البابُ مفتوحًا، الطلاءُ الذهبي أصبح قاتمًا، الفراشُ مازال في منتصف الغرفة تمامًا، الاتجاهُ الذي كان ينام فيه والدها دائمًا مرتبٌ بمبالغة، والنعل المنزلي الزيتوني اللون أسفله يقبع على الأرض ينتظر قدميّ صاحبه الدافئتين، عطرُ والدها الرجولي يعبق الغرفةَ ويتسربُ خارجها بقوةٍ لحث والدتها وقد بدلت ملابسها بأخرى ملونةٍ بشكلٍ مُبالغ وتطلى

شفتيها بلونٍ قرمزي بتمهلٍ غريب وكأنها تتذوق اللون أولاً، مطت رؤى شفتيها بمللٍ وقبل أن تُكمل طريقها سمعت والدها توقفها قائلةً:

- لا تغضبي والدك فهو في مزاجٍ رائق !!

حركت رؤى رأسها بسأمٍ مرهقٍ وتوجهت نحو غرفةِ مكتب والدها مضاعفةً، ولدهشتها وجدت نفسها تتصرفُ بتلقائيةٍ وطرقت الباب بخفةٍ وكأنه بالداخل بالفعل ثم فتحت الباب وولجت وهي مطرقة برأسها للأسفل. رفعت رأسها ببطءٍ وعيناها تسبقها نحو أركانِ الغرفة، تستقر في كل ركنٍ منها لجزءٍ من الثانية وكأنها تصافحها بنظراتها السابحة، وقفت للحظاتٍ أمام مكتبه الخشبي المطلي باللون البني القاتم وببطءٍ شديد تحرك جسدها. دارت حول المكتب إلى أن وصلت للمقعد الضخم الدوار خلفه. مررت أناملها فوقه وهي تمسح بعضَ الغبار الطفيف الذي علق به. هنا كان يضع ساعديه ويستندُ بمرفقيه، وهنا يعود بظهره للخلف ضاحكًا، وتلك المكتبة الضخمة البنية اللون هناك والتي تملأ جداراً كاملاً من جدران الغرفةِ الأربعة، معظم الكتب بها عن الطب النفسي والعلاج الروحاني والتي كان يستعين بها كثيرًا لمساعدة والدها لتخطي أعراض الوسواس القهري والهلاوس التي تعتريها أحيانًا .

سقطت عيناها سهوًا على الأصيص المشروخ من المنتصف قائمًا والموضوع على الأرض بجوار المكتبة، لاتعلم لماذا ظل والدها محتفظًا بهذا الأصيص الغريب المصنوع من الطين المجفف والمنحوت على شكلِ

وجه رجلٍ جامد العينين وبداخل الأصيص سيقانٌ لنباتات جافة كأنها بعض من شعر الرجل ليكمل صورة الوجه الفزع من شيء ما، ربما احتفظ به والدها لأنه كان هدية من والدتها في ذكرى يوم ميلاده. تذكرت عندما حاولت مرارًا وتكرارًا إقناع والدها بأن نعيده إلى المكان الذي ابتاعته منه ونستبدله بشيء أكثر رقةً وجمالاً ولكن والدها أخبرها بأنها ابتاعته من رجلٍ مرّ ببابهم يحمل عددًا منهم خلف ظهره وجميعهم بنفس الشكل ولم يمر بعدها أبدًا وكأنه جاء من أجل منحهم هذا الأصيص بشكل حصري ثم يختفي بعدها للأبد.

أكملت رؤى دورتها حول المكتب الخشبي حتى عادت إلى المقعد الصغير المقابل له فجلست فوقه بخفة واستدارت بجسدها كله تواجه المقعد الضخم خلف المكتب وكأنها تنظر إلى من كان يحتله يومًا بجسده العريض القوي البنية وبللت شفتيها بلسانها بتوترٍ وهي تستشعر أنفاسه حولها في كلّ مكانٍ فأغمضت عينيها بألمٍ قبل أن تهمس:

- ليتك هنا بالفعل

ارتعشت إضاءة المصباح الصغير البرتقالي قليلاً وكأنه يخبرها سرًا ما !، وقد كان المصباح الوحيد الذي يضيء الغرفة، فسرت في جسدها قشعريرةٌ لا تعرف مصدرها ولكنها أجبرتها على النهوض لمغادرة المكان في الحال، تنحنحت بخفوتٍ وتوترٍ وهي تنهض واقفةً متوجهةً نحو باب الغرفة ولكنه فُتح فجأةً وضرب وجهها فصرخت وهي تتراجع للخلف

خطوات تمسكة بأنفها المكدوم قبل أن تظهر والدتها وهي تلج للداخل حاملة فنجاناً من القهوة السادة وتقول عاقدة حاجبيها باستهجان:

- انتهي لنفسك أيتها البلهاء فوجهك لا ينقصه تشوهاً آخر

وتابعت وهي تضع الفنجان فوق سطح المكتب وبابتسامة حلل:

- هيا عودي لغرفتك يا صغيرتي، لا يجب أن تستمعي لأحاديث الكبار

زفرت رؤى بقوةٍ وهي تدلك طرف أنفها برعونةٍ وخرجت من الغرفة وقبل أن تغلق الباب وجدت والدتها تميل على سطح المكتب بجذعها وهي تنظر للمقعد الضخم قائلةً بابتسامةٍ مُشرقة:

- قهوتك عزيزي !

***

- لماذا تبكين؟!

اعتدل هشام في فراشه على جانبه الأيمن بقلقٍ نحو هالة المستلقية بجواره وهي توليه ظهرها ولكنها لم تجبه، كاد أن يشك بنومها ولكنه متأكد من سماع نهنهاتها المتواصلة منذ ثوانٍ، فأعاد سؤاله مجددًا وهو يلمس كتفها فاعتدلت مستلقيةً على ظهرها وأدارت رأسها نحوه قائلةً بصوتٍ مختنق:

- لا شيء، عُد لنومك

نبرة صوتها المتقطعة أكدت له بكاءها فتنهد بقوة قبل أن يمسح أثر النوم عن وجهه بكلتي يديه ثم قال بنبرة يشوبها الحنو:

- تعلمين أنني لا أستطيع النوم وأنتِ تبكين هكذا؟

لخيل إليه أنها ابتسمت ساخرةً وقالت بصوتٍ حزينٍ شارد:

- منذ متى وبكائي يمنعك من النوم يا هشام؟!

زفر حانقًا وهتف فجأة وقد اختفى كل أثرٍ للتعاطف معها:

- وهل النوم جريمة هذه الأيام. ألن تنتهي من تلك الاسطوانة أبدًا

غطت أذنيها بكفيها بينما أعاد هو زفرته بقوةٍ وهو يحك ذقنه الحليقة بأصابع مضطربة ويعود ليستلقي على ظهره ناظرًا لسقف الغرفة واضعًا كلتي يديه أسفل رأسه بصمتٍ.

وقتها لم تكن تعلم هي أن سكونه كان ظاهريًا فقط ولكن بداخله صراعٌ محتدم، لماذا لا تستطيع سماع صمته؟! كلما أراد ضمها دفعته بكلماتها، لماذا ترحل بأفكارها البائسة بعيدًا عن نيته الطيبة نحوها، إنه يهتم، ولكنه لا يستطيع أن يُظهر اهتمامه كما يجب ولا يعلم لماذا، كلما حاول تراجع وكأن هناك ما يدفعه بعيدًا عنها، هل لأنها هي من تطلب الاهتمام؟، تطلبه بشغفٍ يجعله يخشى التقصير!، تقصير صاحبه لسنوات زواجهما منذ بدايته لا يعرف أسبابه ولا كيف يتخلصُ منه

طال صمته ولم تجدْ هالة ما تقتتْ أن تجده، فسال دمعها بغزارة أكثر وصمتٍ أكبر وعادت توليه ظهرها، والهوة بينهما تتسع أكثر فأكثر، وكان كلاً منهما العزل تمامًا في جزيرة نائية عن الآخر. هو حتى لم يكرر لمسه، وكان لمسته الأولى لم تكن سوى حركةٍ روتينية لا روح فيها، إنه لازال يسمعها تبكي، فلماذا لا يخرجها من عذابها ويجذبها رغمًا عنها بين ذراعيه لتستكين، مؤكدًا لها بأنه لا يسأل عن بكائها من بابِ الواجب وفقط كما تظن، لماذا لا يُصر؟، إنما تنتظر إصراره لتشعرَ بأهميتها لديه، نعم ستدفعه وتهتف بعدم رغبتها في الاقتراب منه، لكن بداخلها تصرخ فيه أن لا يستمع إليها، أن يضمها ويمسح شعرها مُعلنًا حبه وملكيته لها، لماذا لا تتحرك يا هشام؟، لماذا، إن لم أخبرك بسبب بكائي تتركني وتصمت؟.

أنا لا أريد الحديث فلربما لا أعرف سببًا حقيقيًا لدموعي، فقط أريد أن أشعر بدفء قربك، بلهفتك على ضمي ولو بالقوة!، أريد أن أنام على ذراعك لا أكثر، أنتظرُ فقط أن تُصر، فما الذي يدفعك بعيدًا بكل هذا البرود؟!

شعرت بكلماتها التي تدور بداخلها تتعاظمُ أكثر فأكثر مع تواصل صمته، تخنقها وتمنع عن رئتيها الهواء، بدأت تتنفس بصعوبةٍ واحتقن وجهها وكان هناك من ينفثُ بوجهها نيرانًا مشتعلة، الحنقُ يغلي بصدرها بكونها والغصة المُسننة تتلوى بحلقها كالحية، وبدون مقدمات نهضت

جالسة في محاولة ضعيفة للتنفس بسهولةٍ أكثر، لحظاتٌ أخرى مرت وهو يكتفي بالنظر نحوها دون أن يُحرك ساكنًا مستمعًا لأنفاسها العنيفة تحاربها، كل ما فعله أن قال برتابةٍ وهو مازال قابعًا في مكانه:

- هل أفتحُ لكِ النافذة؟.

صقيعُ كلماته رمى بها بين ثلوج عدم اكتراثه بعنفٍ فتجمدت للحظاتٍ قبل أن ينفجر بركانُ يأسها بوجهه كالعادة. وجدت نفسها تهتفُ باكيةً بلا مقدماتٍ وهي تهوى من فوق الفراش على ركبتيها:

- لا، لا أريد منك شيئًا، عُد لأحلامك السعيدة، عُد لصمتك المطبق هذا، لا تتعب أحبالك الصوتية لأجلي

ما إنْ انتهت حتى شعرت بدقات قلبها عنيفةً مؤلمةً مما دفعها للسكون تمامًا لعل الألمَ يهدأ، في نفس الوقت الذي هبَّ فيه هشام جالسًا وهو يستغفر بصوتٍ مرتفع ويمسح وجهه بعنفٍ مُمررًا أنامله فوق شعره القصير للغاية عدة مراتٍ، لا يعلم ماذا يفعل، لقد سألها وهي لم تجبه فلماذا تصرخُ هكذا؟!

طرقاتٌ صغيرة على باب الغرفة جعلها تتحملُ آلامها وتنهضُ مسرعةً لتفتح الباب لتجد خلفه ابنتيها تفركان عينيهما بقبضتيهما وقد استيقظتا فزعتين على أثر صوتِ صراخ أمهما الذى عبرت حمّمهُ إلى غرفتهما كما يحدثُ دائمًا، ضمتهما في صدرها وغادرت معهما لتقضي الليلة بينهما تاركةً خلفها زوجها جالسًا مكانه دافنًا رأسه بين كفيه وقد

نفدت طاقته لهذا اليوم. لحظاتٌ قليلة مرت قبل أن يصلها صوت شخيره المتواصل وكان شيئًا لم يكن.. يا للرّجال !!

– لماذا تبكين ؟ هالة .. هالة !

انتفضت هالة من شرودها لتجد دموعها تملأ وجهها وهشام يهزها قليلاً وهو يسألها عن سبب بكائها، تنفست بعمق وهي تغلق عينيها وتضغطهما بقوة، لقد شردت في مشهدٍ تكرر كثيراً فيما مضى، تبكي فيسألها – إن كان مستيقظاً – عن سبب بكائها مانحًا إياها تعاطفًا روتينيًا متكررًا، فيتجادلا ثم صراخاً باكياً يكاد يمنع عنها الهواء وأخيراً تذهب لتنام مع الأطفال ليعود هو وينام وكأن شيئًا لم يكن. وعندما يستيقظ صباحًا يذهب لعمله سريعًا دون أن يكلف نفسه عناء الاطمئنان عليها، هذه هي عادته عندما يتشاجرا، يتجنبها حتى يعود من عمله ثم يبدأ بمصالحتها معتذرًا ويوعد بقطعه على نفسه بأنه لن يكرر ما حدث وسيهتم في المرة المقبلة، وسترى !

أما الآن وبعد أن اكتشفا مرضها الخبيث تغير الوضع قليلاً، أصبح يهتم، يحاول تعويضها عن إهماله لها لسنوات وهو يعلم أنها ستفارقه للأبد. التفتت نحوه تعلو شفتيها ابتسامة شاردة لتجيبه مطمئنة إياه:

– لا شيء، أنا بخير

ضمها قليلاً وهو يتساءل بقلق وإلحاح:

- لقد كنت تبكين بقوة ولا تستجيبي لندائي المتواصل!.

رافقت نظرة الشفقة المشوبة بالقلق في عينيه وسؤال متضجر يدور بقلبها، أيجب أن أموت يا هشام لتبدي اهتمامًا بي؟، ولكنها منعته بقوة وهي تُطبق فكيها بارتعاش قبل أن ينطلق لسانها به، وماذا يفيد العتاب الآن؟!، لا وقت لديها لتقضيه في تعذيب نفسها ومن حولها بعتاب أجوف منتظرة أعذارًا واهية قائمة على الشفقة فقط .

وجدت يدها ترتفع تلقائيًا لتربت على يده الساكنة فوق كتفها بتسامح قائلة:

- ربما كنت أحلم، لا عليك غدٌ لنومك، سأنهض لأصلي قليلاً

نهضت متهدلة الكتفين وقبل أن تصل لباب الغرفة سمعته يقول من خلفها:

- لا تتأخري، سأنتظرك

أومأت برأسها دون أن تجيب وخرجت من الغرفة مغلقة بابها خلفها موقنة بأنه لن يفعل! .

***

استيقظت هالة صباحًا وهي تشعر بإرهاق بالغ يسري بجميع أنحاء جسدها ورغم ذلك نهضت بصعوبة لتستعد لتجهيز طفلتيها لتذهب بهما لدار الروضة كما هو المعتاد يوميًا. بحثت عنه في أرجاء الشقة فلم

تجده. لقد غادر إلى عمله باكرًا جدًا، وفي طريقها إلى الطابق الثاني نزولًا وهي تمسك بطفليها بعناية وجدت حماتها العجوز تخرج من شقتها وتتمم على غلق الباب جيدًا ثم تسحب وشاحها المنزلي دائمًا ليغطي مقدمة شعرها بعناية ثم تخرج محفظة جلدية سوداء من جانب جلبابها المسدل على جسدها باستقامة لتدس بها المفتاح وتغلق سحابها بحرص وكأن بداخلها كنز ثمين. ألقت عليها هالة تحية الصباح فالتفتت إليها أم هشام وهي تجيب باعتيادية وتنحني بصعوبة لتقبل الطفلين بحنو مربتة على شعريهما قبل أن تعتدل بصعوبة أكبر وهالة تسألها عن وجهتها باكرًا هكذا، فقالت أم هشام وهي تضرب الأرض بخفة بعكازها:

– ياسين جارنا أخبرني منذ أيام عن مركز للعلاج الطبيعي، فيه طبيبة تعالج الخشونة بالحجامة ولكنها لا تعمل إلا صباحًا فقط

– ياسين الممرض؟!

أومأت أم هشام برأسها بإيجاب قبل أن تقول مردفة:

– نعم هو، إنه يمدح فيها بشدة وفي زوجها الدكتور بلال، وأكد لي بأن شفاء زكيتي على يديها بإذن الله

مطت هالة شفتيها بتفكير وهي تعرض خدماتها قائلة:

– ما رأيك أن تنتظري حتى أعود لأصطحبك إلى هناك؟

تبسمت أم هشام وهي تراقب الإرهاق والمرض البادين على ملامح هالة المتعبة ثم قالت:

- لا داعي يابنيتي، المركز لا يبعد عن هنا كثيرًا، فقط بضعة دقائق

تقبلت هالة رفض حماتها بسعة صدر فهي لم تكن متحمسة من الأساس، نعم هي تود مساعدتها ولكن تلك المشاعر الجديدة التي ربطتها بحماتها لم تعتد عليها بعد. لقد كانتا كقط وفأر منذ شهور قليلة فقط. ولكن فجأة بعد أن علمت حماتها بمرض هالة المميت تبدلت تمامًا وصارت لها أمًا رؤومًا، أغدقت عليها من حنانها وكأنها تودعها. وبعد أن كانت نظراتها لها في السابق تحمل عداوية في طياتها، صارت نظرات مشفقة رحيمة. فجأة تذكرت أنها يتيمة وأن لا أهل لها فقررت أن تكون هي أمها وتحيطها بحنان العائلة !. لماذا لا نرحمهم إلا بعد علمنا بموعد ذهابهم؟!، وكأن الموت يحتاج إلى تحديد موعد لنتأنق !.

***

تنهدت والدة هشام بارتياح وهي تضيق عينيها بتركيز وتعدل من وضع نظارتها السميكة القابعة فوق عينيها وقد انتهت للتو من قراءة اللافتة الكبيرة لمركز العلاج الطبيعي الذي لا يبعد كثيرًا عن منزلها، هو يعد تقريبًا في نفس الحي البسيط. دلفت من باب المركز وقد وجدت ما أبلغها به ياسين من قبل متحمسًا أمامها، صالة استقبال كبيرة مزدحمة بالنساء اللاتي يرغبن في العلاج بالحجامة في هذا الوقت من الصباح

وثلاث غرف خلف ثلاثة أبواب لا تعلم أيهم وجهتها ومكتب عتيق في مواجهة الباب تمامًا يتناقض حجمه مع الدفتر الوحيد الموضوع فوقه ولقد استنتجت والدة هشام أن هذا المكتب لـ ياسين يدون به أسماء المرضى كما هو الحال، تلفتت يمنة ويسرة باحثة بعينيها عنه حتى وجدته عائدًا من حجرة جانبية صغيرة لم تلحظها من قبل وبيده كوب من الشاي الساخن تتصاعد أبخرته بسياق لا ينتهي، وما إن رآها حتى أقبل عليها بابتسامة مرحبة قائلا بخفوت:

- الحمد لله أنك قد أتيت باكرًا يا أم هشام، لقد حجزت لك أول كشف، الدكتورة عبير وصلت ودخلت حجرتها للتو

أخرجت والدة هشام حافظتها الكبيرة وهي تسأله عن ثمن الكشف ولكنه وضع يده سريعا على حافظتها ليمنعها قائلاً:

- الدكتورة عبير لا تأخذ أجرًا على عملها هذا يا حاجة، فهي تهب ثوابه لحماتها رحمها الله

رفعت والدة هشام حاجبيها بدهشة متعجبة قبل أن يشير إليها ياسين بالدخول وهو يتقدمها بخطوة واحدة، وعندما دلفت داخل حجرة الكشف وأغلق ياسين الباب خلفها بحرص، استقبلتها عبير ناهضة تجاهها من خلف مكتبها الصغير القابع في زاوية بعيدة عن باب الحجرة بابتسامة مشرقة لتأخذ بيدها لأقرب مقعد أمامها.

عاينت والدة هشام عبير وغطاء وجهها الذي ألقت به خلف رأسها بأناقة وهي تقدر عمرها بأنها لم تتجاوز العقد الثالث بعد من عمرها وتمتمت بفضول:

- أنتِ الدكتورة عبير؟!

ضحكت عبير ضحكة صغيرة خافتة وهي ترى نظرات الفضول المصحوبة بالدهشة التي تُطل بضراوة من عيني المرأة وقالت بتفهم:

- نعم أنا هي، ولكنني لست طبيبة

وعندما رأت حاجبي والدة هشام ينعقدان وتغضنت زوايا عينيها باتهام، قالت شارحة:

- زوجي الدكتور بلال طبيب وهو في الأصل صاحب هذا المركز للعلاج الطبيعي ولكن عمله هنا لا يبدأ إلا بعد صلاة المغرب بقليل، وقد منحني دورات عدة في العلاج بالحجامة وأجازني فيها.

تنفست والدة هشام الصعداء وقد اطمأنت بعض الشيء وهي تسترخي قليلاً ثم بدأت في شرح ما يؤلمها وهي تستند بكفيها على ركبتيها وعبير تستمع إليها بإنصات، وهي تشرع في العمل على الفور بأصابع مدربة خبيرة، بينما والدة هشام تطلق العنان لذكرياتها وهي تحكي لها باستفاضة عن شبابها وصحتها التي ولت في تربية ولدها وابنتها التي تقطن بعيدًا عنها مع زوجها، وكيف جاءت زوجة ابنها لتأخذه منها

هكذا دون تعب، وأخذت تقص عليها وكأنها تعرفها منذ زمن طويل المشاكل التي دبت بينهما حتى اضطر هشام إلى تأجير الشقة الشاغرة في الطابق الذي يعلوها لفصلهما عن بعضهما البعض.

استشفت عبير من حديث المرأة عدم تقبلها لزوجة ابنها فقالت وهي تتابع عملها بتلقائية:

- اتعلمين يا خالتي، زوجي الدكتور بلال وحيد أمه، وكنت أرهبها في البداية ولا أعرف كيفية التعامل معها، ولكنها احتضنتني كابنة لها وصارت لي أمًا ثانية، هي من علمتني كيف أعمل لخدمة الناس دون انتظار مقابل وساعدتني في تربية أولادي الأربعة بكل حب وصبر، وعملت معي هنا ودربتني كثيرًا حتى أصبحت خبيرة في هذا المجال، وعندما توفاها الله افتقدتها كثيرًا وبكيتها أكثر من ولدها نفسه، وكلما أسجد بين يدي الله في صلاتي أتذكرها في دعواتي أكثر من والدتي الحقيقية.

تنهدت والدة هشام وهي تمصمص شفتيها وتترحم على الفقيدة ثم قالت وهي تحرك رأسها وكأنها تدافع عن نفسها:

- والله يا ابنتي لقد عاملتها بالحسنى، لولا تأخر حملها لسنة كاملة ورفضها الذهاب للطبيبة لمعرفة سبب تأخر الحمل، فصارت العلاقة بيننا سيئة للغاية، وحتى بعدما حملت بطفلتيها لم تتصالح

أبدا إلا بعد أن علمت بمرضها المميت وبأنها موشكة على لقاء ربها .

رفعت عبير وجهها مصدومة، سيظل الموت هو الحقيقة الوحيدة في حياتنا، نؤمن به وننتظره، وبالرغم من ذلك يصدمنا عندما نشتم رائحته حولنا، أطرقت برأسها، تزفر بهدوء وتحرك عنقها يمنة ويسرة بشفقة وهي تتخيل كيف ستفارق أماً ما أطفالها في مثل هذا السن المبكر جداً وهي على علم بذلك، فهي أم وتدرك كيف هو شعور الأم عندما يتعرض الأمر بمستقبل أطفالها، لانت ملامح عبير بتسليم لقدر الله، متمتمة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، عافاها الله من كل سوء، وحفظها لأطفالها

تنهدت والدة هشام وصمتت للحظات ولكن صمتها لم يدم طويلا وعادت لتستكمل حكيها حتى كادت عبير أن تنتهي من عملها، لم يوقفها إلا رنين هاتف عبير الذي أصر أن تجيبه بإلحاح، راقبتها المرأة بإنصات فضحه تركيز ملامحها الشديد معها وهي تتحدث إلى زوجها بخفوت ووجهها يتلون باللون الوردي المحبب، وما أن لاحظت عبير تنصتها عليها أنهت المكالمة سريعا هامسة له بخفوت:

- سترى حكاية ضميرك هذا فيما بعد، لدي عمل الآن، مع السلامة .

أنهت المكالمة وهى تحيد بنظرها عن والدة هشام التى رفعت حاجبًا واحدًا بإدراكٍ مصطنع وكأنها علمت ما دار بينها وبين المتصل من تورد وجهها، وقبل أن تعاود عبير إنهاء عملها قالت بابتسامة موضحة:

- إنه زوجي

عادت المرأة تتنهد مجددًا وهى تهز رأسها بثقة فى تخمينها السابق ثم

عقبت وهى تعتدل فى جلستها بحكاية أخرى عن إحدى مشاكل ولدها مع زوجته بسبب عدم مهاتفته لها ليطمئن عليها خلال فترة عمله الذى تدوم اليوم كله وضيقها بمكالمته الوحيدة التي يفعلها فقط وهو عائد من عمله ليسألها عن المشتروات الضرورية للمنزل

ضحكت عبير بخفة وهي تنهي عملها وتنهض قائلة:

- أنا وزوجي حالة عاطفية خاصة، من الظلم القياس عليها، ولكن أصدُقكِ القول مكالمته تلك تمنحني دفعة قوية جدًا لاستكمال مهامي اليومية بحماس متدفق

ارتكزت والدة هشام على عكازها ناهضة وهي تُتمتم غير معجبة بما سمعت للتو:

- بنات آخر زمن

احتضنت عبير كتفيها مودعة إياها وهي تذكرها بالتعليمات الواجب اتباعها بعد الحجامة، ثم تحركت والدة هشام نحو باب الحجرة ببطء

مطرقة برأسها وكأنها تفكر بأمر هام وما أن أمسكت بمقبض الباب حتى التفتت فجأة تجاه عبير متسائلة:

– ألا تدليني على عروس مناسبة لظروف ولدي هشام

اتسعت عيني عبير بدهشة مأخوذة وهي تهتف غير مصدقة:

– ماذا !؟

***

أدخلت هالة طفليها إلى دار الروضة، عند الباب الخارجي تشير إليهما بابتسامة وعندما تسابقا إلى رؤى ولمعلمة أخرى كانت تقف بجوارها، انحنت رؤى إليهما محتضنة جسديهما الصغير بين ذراعيها وعندها استمعت إلى نداء هالة لها وهي مازالت واقفة عند باب أولياء الأمور الخارجي:

– رؤى !!

التفتت رؤى والمعلمة الأخرى لمو الصوت، وخطفت رؤى نظرة مرتبكة إلى هالة التي كنت تشير إليها بابتسامة صامتة متسائلة عن تجاهلها فأشاحت بوجهها وكأنها لم ترها، هاربةً مما تَتوق إليه!. بينما أخذت المَعلمة الأخرى الأطفال إلى الداخل، تبعتهم رؤى مُغلقة الباب الداخلي للدار خلفها وكأن شيئا لم يكن !.

تلاشت ابتسامة هالة وزاغت نظراتها مفكرة، هل قررت رؤى الرفض لذا لا تريد أي تواصل معي ولو حتى بنظرة؟!، نفضت الفكرة عن رأسها سريعًا وهي تضع خيارات أخرى، ربما انشغال رؤى في بداية يومها بالأطفال هو السبب في تجاهلها لها !!

وعندما ذهبت لإصطحاب الأطفال في نهاية اليوم فعلت رؤى نفس مافعلته في بدايته، فتجنبت الحديث معها منصرفة بخطوات مضطربة بعيدة عنها. عاينتها هالة من الخلف وهي تلحظ مشيتها المتوترة ونحولها الشديد وملابسها الغير مهندمة حائرة بداخلها عن تلك الحالة المذرية الواضحة على رؤى، ترى هل تعاني من اكتئاب ما، وما السبب؟، هل هو عرضها الذي عرضته عليها بين المقابر؟ أمعضلة هو إلى هذا الحد؟

ولكنها لم تيأس، ظلت منتظرة بالحديقة الصغيرة الداخلية التابعة لروضة الأطفال حتى رأت رؤى تخرج من الدار مُعلقة حقيبتها فوق كتفها، مُتشبثة بحزامها الجلدي كأنها توازن منكبيها، نهضت هالة على الفور وهي تنادى على طفلتيها لتأتيا إليها وهما تتصايحان لهوًا مما جذب عيني رؤى إليهما فتوقفت خطواتها دفعة واحدة وقد أيقنت بأن هالة مازالت تنتظرها بإصرار. تلك المرأة لا تستسلم أبدًا، حتى الوهن والضعف البادبين عليها لم يجعلاها تتراجع عما تريد. هل معرفة موعد الموت كافٍ ليتمتع الانسان بقوة لم يكن يملكها من قبل وكأنه لم يعد يهاب شيئًا

بعده!، بل يصبح الخوف فى ذاته كلمة باهتة لا حياة فيها، تختفى كل المعانى أمامه ولا يبقى سوى انتظار مواجهته وجهاً لوجه.

تنحنحت رؤى وهى تقرب بوجهها من هالة التى تقترب منها بابتسامة ضعيفة وخطوات واهنة، لم تستطع صد تلك الأسئلة فى عينيها، ولم تكن تملك الإجابات، لا تعلم لماذا تضطرب ولا ممَ تهرب، ربما لأنه لاح لها أمل جديد فى تغير حياتها نسبياً إذا وافقت والدتها على الانتقال لشقة أخرى خالية من ذكريات مُعذبة كما أخبرها الطبيب. تشعر أن اقتلاع جذور شجرة ضخمة قديمة هو أهون بكثير من حمل والدتها على ترك منزلهم!

- حسناً، لو كان عرضى الذى عرضته عليك من قبل هو سبب تحاشيك لقائى فاعتبريه كأن لم يكن

رفعت رؤى عينيها وقد صدمتها عبارة هالة القوية وقبل أن تجيبها تغيرت نبرة هالة وأطل الحنان من نظراتها الطويلة وهى تقول مستدركة بمرح:

- لكننى لن أتنازل أبداً عن صداقتنا التى لم تبدأ بعد

سارت رؤى بجوار هالة والفضول يكاد تنطق به خطواتها المتوترة، وفجأة قررت البوح بما يعتمل بصدرها بتلقائية ودون تخطيط فتوقفت واستدارت نحو هالة متسائلة بفضول:

- هالة، التعب والوهن يظهران عليكِ بوضوح ورغم ذلك صممتِ على المشيَ معي حتى منزلى فلماذا؟؟!

رفعت هالة كتفيها وهى تستكمل سيرها فتجبر رؤى على اللحاق بها وهى تقول بلامبالاة:

- لاشيء، أود أن أتعرف على مكان سكنك فقط ونتحدث قليلاً أثناء سيرنا، أما التعب والوهن فهما يلازمانى دائما لعدة أيام بعد جلسة العلاج الكيميائى فهى مرهقة جدًا .

زمت رؤى شفتيها بتعاطف ثم تابعت بفضول أكبر على غير عادتها:

- هل حقاً ليس لكِ أخوة أو أقرباء كما قلتِ من قبل

ظهر شبح ابتسامة على شفتي هالة وأطرقت برأسها قليلاً قائلة بشرود:

- الأقرباء والأخوة يا رؤى هم من تجدينهم دومًا متى احتجتِ إليهم، أما من لا يدرون شيئًا عن عذابك، عن معاملة زوجك لكِ، عن حاجتك إلي عائلة، إلى وجودهم حولك ليشدوا من أزرك إذا مالت بكِ الدنيا، عن شكوى تودين أن ترميها بحجر أحدهم ليحتويكِ بعدها بتفهم فتعودين بعدها لحياتك وكأن المعاناة لم تكن، من لا يفعلون ذلك يا رؤى حتى لو علموا بموتك فلن

يفعلوه مع أطفالك، هم ليسوا بأقرباء، هم فقط رحم، لا نقطع صلتنا به، فقط ابتغاء مرضاة الله .

شعُرت رؤى بكل كلمة ألقتها هالة للتو على مسامعها، لا لم تشعر فقط، بل تعايشت معها بكل جوارحها حتى الغصة التي تخنق كلمات رفيقتها تذوقتها واستشعرت وخزتها بحلقها، وتساءلت بداخلها، تُرى هل تواجد أقرباء من حولنا له أهمية كبيرة لهذه الدرجة؟، هل لو كنت امتلك أحدهم كنت سأستعين به على علاج والدتي وربما تتغير حياتي؟

***

استندت هالة إلى ذراع زوجها وهو يأخذها إلى أحد المقاعد الخشبية المتهالكة بجانب ذاك الجدار الشبه متهدم بداخل تلك المشفى الحكومي في انتظار دورها لجلسة علاج كيميائية أخرى كما حدد لها الطبيب، حاولت هالة كتم أنفاسها قدر المستطاع فالمقعد بجواره كومة من نفايات المشفى التي تُلقى في ساحتها الخارجية بإهمال دون مراعاة لهدف المشفى المنطقي وهو علاج المرضى لا جلب الأمراض إليهم. أخذ هشام يتفحص تذكرة العلاج مجددًا بينما ركزت هالة بصرها وسمعها من تلك المجموعة التي تقف بجوارهم وقد تباينت أعمارهم ما بين عجوز وشاب في مقتبل العمر وآخر مازالت بمنتصفه. جذبها حديثهم وكل منهم يحكي وجعه وآلامه، وكأن مشاركة الآلام تخفف بالفعل من شدة وطأتها، عكس السعادة التي تزداد وتكبر عندما نتشاركها مع الآخرين. كان

الرجل العجوز يشد على كف زوجته بداخل كفه وكأنه يدعمها ويؤكد لها أملاً احتل نظراته دومًا وهو يتحدث إلى المرأة الأربعينية التى تقف مواجهة له قائلاً لها وهو يشير لزوجته:

- لا تيأسي وتعلمي الصبر من زوجتي، هل رأيتِ يومًا امرأة مصابة بذلك المرض وفى قمة الصبر والثبات مثلها، أشعر أن المرض سييأس منها ويرحل دون رجعة، كيف له بمواجهة تلك المحاربة!

ابتسمت زوجته العجوز وهى تنظر له بامتنان وتتنفس بمجهود بالغ، ربما هى تعلم أنه يسعى إلى ابتسامتها أكثر من بحثه عن علاج مرهق فى ذلك السن الطاعن.

راقبت هالة البسمة التى علت وجه الشاب الأسمر الطويل الذى يقف بجوارهم والأمل الذى رسم خطوطه فى مقلتيه وهو ينظر إلى الرجل وزوجته بتفاؤل وكأن لسان حاله يقول:

- لو كانت تلك المُسنة قادرة على هزيمة المرض فمن باب أولى أن أفعل أنا

عادت هالة بعينيها إلى زوجها المنشغل بالنظر إلى بحو المشفى الظاهر أمامه وانخفضت نظراتها إلى يديه المعقودتين فوق صدره ثم تحركت ببصرها إلى يديها الفارغتين فوق قدميها وهى تتساءل عن ماهية الدفء الذى يسري الآن بكف المرأة العجوز. ترى ماهو شعور الدفء ذاك، ماهذا السر الذى ستظل دومًا تجهل معناه، لماذا يظن هشام بأن

الاهتمام فقط في مصاحبتها لجلستها العلاجية، وهو صامت، متباعد، شاردًا في الفراغ، متجهم الوجه، خاوي النظرات وكأنه ينتزع منها صبرها ليضع عوضًا عنه يأسه وخوفه من المستقبل. التفت هشام إليها فجأة وشاهد نظراتها متمركزة فوق يديه بشرود، اقترب منها قليلاً، راقبت هالة يده وهي تتجه نحوها، هل فهم أخيرًا ماذا أحتاج، هل سيدعمني الآن؟، سيمسك بيدي، لا .. سيضم كتفي بساعده إلى صدره إلا أنها أغمضت عينيها بيأس عندما استند بيده إلى ظهر المقعد المتهالك من خلفها وهو يميل نحوها قائلاً بغيظ:

- تلك الممرضة هناك مستفزة للغاية، سألها أحدهم عن شيء ما فصاحت بعصبية دون مراعاة كهولته ولا مرضه الواضح عليه والشمس الحارقة التي تقف جميعًا أسفلها منذ ساعات وكأننا نعمل خدم لديهم هنا، إهمال !!

***

رحيل

هل هو الخريف حقًا أم هي فقط التي تشعر بأنها تحيا فصولها الأخيرة من عمرها، هل تساوي الليل والنهار جاء مصاحبًا لهذا الموسم أم أنها هي التي ترى ببصيرتها انعدام الزمن في المكان الذي ستذهب له قريبًا؟!. حالتها تزداد تدهورًا وأصبحت حبيسة المنزل. ورقة شجر باهتة سقطت من مكان ما مرورًا بنافذتها، ألصقتها الرياح القوية بزجاجها لثوانٍ ثم عادت تكمل رحلة سقوطها للأسفل بعد أن منحتها إشارة بأن تستعد للذهاب!

تنفست هالة بعمق ومدت يدها نحو غرّة الشعر المبعثرة على جبين ابنتها جنى النائمة على يمينها، واضعة يدها الصغيرة أسفل رأسها باسترخاء وشفتيها منفرجتين قليلاً تتنفس من خلالهما كعادتها، وقامت بتسويتها بحنان وهي تتحسس كل خصلة منها ببطء ممتزج برعشة أناملها خشية من أن توقظها. ثم مدت يدها الأخرى نحو الجنين عن يسارها والتي تتنهد دائمًا تنهدات ناعمة رقيقة أثناء نومها وكأنها تحلم بشيء سعيد على الدوام. لمسة يد هالة فوق جبينها جعلت حاجبيها الصغيرين ينعقدين قليلاً بينما زمت شفتيها ثم عادت ملامحها تسترخي وتسبح في حلمها من جديد. ترى هل مفارقتها لهما ستجعلانهما تتأخران في النطق أكثر مما هما عليه؟، هل ستسهلان الأمر على رؤى

كأم بديلة؟، أم ستتغير مشاعرهما نحوها بعد أن تسكن معهم بنفس المنزل وتنام مكان والدتهما ويعتادان عليها أكثر بكثير من كونها مجرد معلمة؟.

- هل أنقلهما إلى غرفتهما الآن؟

قاطعت عبارة هشام خيالها عن مُستقبل لن تحياه. فالتفتت نحوه قائلة بهمس وهي تحرك رأسها نفيًا بشرودٍ تغادره دون أن يُغادرها:

- لا، أريدهما بجواري الليلة

أومأ برأسه موافقًا وانحنى بجذعه نحو نهاية الفراش ليسحب غطاءً خفيفًا لنفسه مستعدًا لقضاء ليلته بغرفة بناته، فاعتدلت هالة على الفور جالسة في مكانها وهي تقول بنبرة خفيضة:

- هشام، ابقَ هنا

لم ينتبه إلى نبرة الرجاء الناطقة في صوتها ولا إلى نظرة عينيها التي تحتوي وجهه وكأنها تطبع بداخل مقلتيها ملامحه الطفولية ببشرته القمحية. لم يفهم أنها نظرة وداع تحرق قلبها شوقًا له.

اعتدل بعد أن حمل الغطاء وتقدم نحوها بابتسامة ثم انحنى ثانية يطبع قبلة على شعرها هامسًا:

- لا داعي، السرير لن يكفينا جميعًا بسهولة، ولا أريد ازعاجكم بتقلباتي الكثيرة، تُصبحين على خير

عندما التفت ليرحل أمسكت بكفه بوهن فاستدار لها وللمرة الثانية لم يستطع قراءة نظرتها المتوسلة وهي تقول بصوت مرتجف قليلاً:

- أخشى أن تكون هذه آخر ليلة لي و..

قاطعها وهو يمسك بذقنها بهدوء ويرفع وجهها نحوه قائلاً بلغة اعتاد الحديث بها معها عندما تقول مثل هذه الكلمات:

- لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام مرة أخرى، أنت بخير وستحسنين مع العلاج صدقيني، أتركي هذه الوساوس جانبًا الآن وارتاحي فجلسة العلاج اليوم صباحًا كانت شاقة عليك للغاية، هيا اخلدي إلى النوم

قبلها مرة أخرى واعتدل مغادرًا للغرفة إلى غرفة بناته. التفتت هالة إلى المنضدة الصغيرة بجوار السرير بتفكير إلى أن تنهدت في النهاية وقد حسمت أمرها. مدت يدها إليها وسحبت أحد دفاتر اللغة العربية الخاصة بابنتها حنى، ثم سحبت قلمًا كان بجوار الدفتر وهي تنوي كتابة رسالتين منفصلتين.

تنفست بقوة وعمق لتكبح دموعها محاولة تثبيت القلم الأزرق بين أصابعها والتي اعتادت ابنتها لجين عض خاصرته بأسنانها وبدأت تخط بيدها المرتعشة الرسالة الأولى وقد كانت كوصية وتذكار منها إلى ابنتيها الصغيرتين. كانت رسالة صغيرة وموجزة وبها مرح وبهجة في محاولة يائسة للتخفيف عنهما عندما تقومان بقراءتها يومًا ما أو يقرأها أحدهم عليهما. وفي بداية كل سطر منها حرصت على أن تكرر نفس الجملة

مرات ومرات " ساكون حولكما دوما، وكعادتى سأنام بغرفتكما دون أن ترياني".

أنهت رسالتها الأولى وانتهت معها تلك الصفحة التي قلبها لیقف قلمها أمام صفحة جديدة تاركة صفحة خالية بينهما كعادتها دائما للكتابة في دفاتر بناتها الصغيرة. تحرك القلم بمدادٍ من قلبها مستعدًا لكتابة الرسالة الثانية والتي لن تستطيع أن تكذب بها وتظهر البهجة كما فعلت في الأولى، فقد كانت موجهة لمن امتلكها ولم تملكه، لزوجها النائم بالغرفة الأخرى تاركًا رياح الوداع تعصف بقلبها الوحيد وجسدها الراحل.

زفرت مرة تلو الأخرى وقد فقدت السيطرة على عبراتها النازفة وهي لا تعلم لماذا قررت أن تكتب له، هل تؤنبه أم تعاتبه برقة؟! ألا تكفي المسؤولية التي ستقع على عاتقه فور رحيلها؟!، لماذا تشعر بتلك الطاقة الغاضبة والمتضاربة بداخلها وكأنها تريد أن تشمت به وفي نفس الوقت تشفق عليه مما سيلقى. وبتردد كبير وبدون تخطيط بدأت تكتب:

- زوجي الحبيب

ثم تطمسها بتوتر حتى كادت الورقة الرقيقة تتمزق بفعل رأس القلم المدبب، إنطلقت الزفرة الأخيرة وقد قررت أن تترك العنان لقلمها وقلبها معًا يكتبان ما يريدان، وما شأنها هي؟!

***

ما إن دخل هشام غرفة بناته حتى ارتمى على أول سرير قابله وأغمض عينيه وهو يشعر بعظامه تئن بشدة من فرط الإرهاق الذي يشعر به، اليوم كان شاقًا للغاية، صباحًا في جلسة العلاج معها ثم أعادها إلى المنزل، وانطلق إلى عمله وكأنه يجري خلف الوقت ليلحق بعضًا منه قبل أن يُخصم له اليوم كله، فصديقه في الشركة وعده بأن يموه عن غيابه صباحًا قدر المستطاع، عمله كمحاسب دقيق جدًا ويحتاج إلى تركيزه الذهني الكامل، وهذه الأيام ومنذ أن تدهورت حالة زوجته وهو مشتت بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، الخطأ الواحد في رقم واحد ربما يكلفه فقدان وظيفته على أقل تقدير! انتفض فجأة من شروده عندما ضربت رياح قوية زجاج النافذة المفتوحة وهو يشعر أن أطرافه تكاد تكون تجمدت على أثر تلك الضربة، تنحنح وهو ينهض ليغلق النافذة تمامًا موبخًا نفسه على سرعة انفعاله هكذا وكأنه طفل صغير ينام وحده. عاد إلى نومه وهو يبتسم متذكرًا سخرية والدته منه عندما انتفض أمامها هكذا في يوم من الأيام على أثر صفعة مفاجأة لباب الشقة وقالت له بسخرية لاذعة " أحضر لك طاسة الخضة "!.

من المستحيل أن ينسى ذلك اليوم مادام حيًا، وكيف ينسى عودته من الخارج وملابسه يعلوها الغبار مكونًا طبقة رمادية رقيقة باهتة فوقها وقد دفنها للتو، دفن زوجته. صورة جسدها الملفوف في الكفن وأخوها الرجال يحملانه ويدخلان به القبر لا يمكن أن يفارق مُخيلته أبدًا، هل هذا هو جسد زوجته حقًا؟!

هل بنصت إليهم وهم يدفعونه ليخرج من ساحة القبر ويتركها وحدها، تبيت أول لياليها في قبرها المظلم، بلا رفيق؟!

وهل كان هو هذا الرقيق الذى تخشى عليها من عدم وجوده عندما كانت تبيت فى بيته؟، وفى غرفته، وعلى فراشه؟!. هل سيشكل الفرق فارقًا سوى فى الظُلمة فقط؟!

هالة التى كانت تملأ البيت سعادة فى بداية زواجهما ثم اختفت ضحكاتها شيئًا فشيئًا وتراجعت صحتها ببطء حتى فارقها لون الحياة وصارت جثة متحركة، ثم هامدة؟

كيف ينسى عيني والدته المتورمتين من أثر البكاء وهى تحتضن ابنته فى صدرها بشفقة، وقد أصبحا يتيمى الأم، كيف ينسى تلك العيون الحائرة وهم يتساءلون عنها بحروف متعثرة ونظرات ضائعة " أين أمى ؟"، كيف ينسى ظهره المنحنى وكأنه يستعد لحمل المسؤولية الثقيلة والجديدة عليه؟

وكيف ينسى يد أمه الممدودة إليه بدفتر صغير لإحدى ابنتيه تخبره بأن زوجته تركت له رسالة. وإن كان يستطيع نسيان كل هذا مع مرور الزمن، فكيف بالله أن ينسى ما كتبته له فى رسالتها تلك بكلمات مذبوحة وذابحة، تلك اللحظة شعر بأنه لا يقرأ الكلمات بعينيه بل يسمعها بصوتها الباكى، وكأنها تهمس بقلمها فوق الأوراق، تذكره، تسأله، ترجوه، تقسو عليه، تبكيه وتُبكيه، تُحبه، وتناديه، ثم تُحدده!:

– هشام، كتبت هذه الرسالة فى آخر ليلة لى فى بيتك، هل تذكرها؟، عندما طلبت منك أن تبقى معى، عندما رجوتك أن تنتظر، عندما كنت أحتاج إلى ضمتك لألفظ حياتى بصدرك، ليكون آخر ما أستنشقه هو عطرك، رائحتك، ولكنك رفضت

وابتعدت ظنًا منك بأنك ستصحو كالعادة لتجدني، وأنا أسألك الآن، هل وجدتني يا هشام؟!، هل صدقت الآن شعوري بأنها آخر ليلة؟!، أشعر الآن بأنني من القسوة لدرجة أن أسألك وأنا على يقين بأنني لن أسمع الإجابة أبدًا، هل سمعتنى وأنا أحتضر؟، أم أنك كنت غارقًا بنومك؟!، هل وجدت جثتي باردة فى الصباح؟، أم كان لا يزال بها بعض من سخونة نزعي؟

أنا قاسية جدًا يا هشام فى تلك اللحظة، ليس قسوة عليك، بل لأجلك !، نعم لأجلك حتى لا تكررها مع غيري، فأنا أريدك أن تعامل زوجتك الأخرى معاملة طيبة لتستطيع هى أن تُحسن معاملة بناتي، بناتي فقط صدقني هو كل ما أفكر به فى تلك اللحظة، لا تفعل معها كما كنت تفعل معي أرجوك، أرجوك أحبها .

عندما تبكى لا تتركها، ضمها إليك.

عندما تفتقد أهلها كن أنت كل أهلها.

عندما تغضب وتثور فجأة منك اعلم أنها تفتقدك، تحتاج ضمتك

عندما تهتف بك " ابتعد "،لا تفعل، بل اقترب أكثر !.

عندما تصرف ببذخ اعلم بأنها تعوض نقص حبك واهتمامك بها، تحتاج عاطفتك.

عندما تصرخ وتتهمك بما لم تفعله، اعلم بأنها لا تقصد ظلمك بل تنطق بمخاوفها فقط، بما يموج به صدرها ولا تعلمه أنت.

هشام، أقول لك هذا وأنا مقبلة على ربي ليس لي حاجة فى دنياكم، فأرجوك تفكر في كلماتي التى أنطق بها للمرة الأولى وقد حالت كرامتي وكبريائي أن أقولها لك سابقًا وأتسول منك حبًا. صدقني لقد أحببتك بكل جوارحي ولم أكن أطمع بالكثير، أردت حبك فقط، أردت ضمتك فقط، أردت أن أصنع معك عالمًا يغنيني عمن فقدتهم من أحبة، لو كان العالم كله نبذني ووجدتك، لكنت تكفي، إلا أنني أضعتك أيضًا، فمن سيبقى لي سوى ضمة قبر ربما ستكون أرحم بي من قلوبٍ تلفظني دومًا.

أوصيك ببناتي خيرًا وتأكد بأنني سأكون معهما على الدوام، بكل طريقة ممكنة، فاحذر غضبي.

زوجتك المحبة " هالة "

أغلق هشام الدفتر وهو يرفع رأسه بعينين باكيتين ومشاعر مضطربة متضاربة.

لماذا لم تتكلم من قبل؟.

لماذا لم تنبهه لأخطاءه؟.

لماذا ضاع كل هذا الوقت هباءً وهو لا يفهم؟.

إنه لم يكن يقصد، لم يكن يقصد نبذها كما ظنت .

نهض والدفتر مازال بيده وذراعاه متهدلتان بجواره وأخذ يدور حول نفسه والدمع يقفز من مقلتيه وقلبه يغلي وحلقه يلفظ الكلمات

كقذائف تحرقه ويريد أن يتخلص من شدة ألمها وهو يهتف بحشرجة باكية:

- لماذا لم تتكلمي من قبل؟، كيف أفهم وحدي ما كنت تخبئينه في صدرك؟، لم أكن أقصد، صدقيني لم أكن أقصد، أحببتك بطريقتي لا بطريقتك، هالة، أجيبي يا هالة أجيبي لا تتركيني أحترق هكذا

عبارته الأخيرة جاءت كصرخة نداء غاضبة متألمة متحسرة كتحسره الذي جاء بعد فوات الأوان، فتحت والدته الباب مندفعة نحوه وقد استمعت إلى صياحه الباكي وأخذت تحضنه وتربت على كتفه وظهره حتى هدأت صرخاته قليلاً وأخذ يلهث من فرط الإنفعال متمتمًا دون وعي ورأسه ملقاة على كتف والدته:

- قولي لها يا أمي أنني أحببتها كما أحبك والدي، أخبريها أنني لا أعرف حبًا آخر غير هذا، أحفظها في بيتي، أوفر لها ما تحتاج، أرعاها عندما تمرض، لم لم تتكلم؟ لم ؟ ربما كنا سنتفاهم!، تبًا لكرامتها تلك، تبًا، تبًا.

***

كان يكفي أن تقف عند مدخل المقابر، فلماذا ظلت تتوغل خلف الجنازة؟، ربما لم تكن تتصور فراق أمها يومًا من الأيام لذلك اتبعت جنازتها وقد غشت عيناها غلالة من الدموع الصامتة، حتى صعد الرجال وقد هالوا عليها التراب، الجيران أصروا على مصاحبتها إلى هنا، لم تكن معها امرأة واحدة فجميع جاراتها حذرنها من الذهاب، وبعضهن لمحن إلى تحريم اتباع الجنائز للنساء، ولكنها أصرت، وها هي تقف

وحيدة على مشارف القبر بعد دخول الرجال المصاحبين لها للمسجد الصغير بالجوار لأداء صلاة الجمعة.

كتفت ذراعيها، أطرقت برأسها، راقبت ظلها، وهى تخطو خطوات واهنة فى محاولة للوصول إلى السيارة التى ستنتظر بداخلها حتى عودتهم إليها ليُعيدوها معهم إلى المنزل، ولكن غلالة الدموع كانت تزداد قتامة وثقلاً بمقلتيها وهى تتذكر معاناة والدها قبل أن تموت، بل قبل أن تقتلها !

عندما وصلت لهذه النقطة اعتصر قلبها برودة ثلجية مفاجئة، سرت على طول ظهرها حتى استقرت فى نهايته وهى تتذكر جسد والدها وهو يحترق بالكامل وتدور بجنون متخبطة فى نيرانها بين جدران غرفة المكتب، تضرب بيديها كل شيء تصطدم به وتصرخ صرخات بشعة لن تنساها يومًا، صراخ مهول مزق ستار الصمت بالحي بأكمله، ألسنة لهب ودخان غشت جدران غرفة المكتب وعندما حطم الجيران باب المنزل أخيرًا كانت قد تفحمت واستقر جسدها خلف المقعد الضخم، وهى تقف بعيدًا أمام الغرفة المفتوحة، تشاهد، وفقط !.

كانت تحبه، بل تعشقه، ولكن حبه لم ينجح فى شفاءها من مرضها النفسي الذى خفت وطأته بعد زواجها به، ولكنه لم يذهب تمامًا، أما بعد موته بهذا الشكل المفجع فقد أصبح المرض يقارب الجنون فى أعراضه، تمزق لأجل فراقه شعرها عاجزة عن استكمال الحياة بدونه، أوقفت زمنها بين يديه، فماذا سيبقى بعده إلا الرحيل إليه؟!، ربما كانت هى سببًا بمقتل أبيها، فلم تبخل على أمها بأن تلحق به !.

وها هي قد أصبحت وحيدة فعليًا، بيبت يخشى الناس ولوجه وقد أسموه بيت الهالين، نعم وحيدة، ولكن ليس تمامًا، لا زال لديها البعض، ومنهم صديقتها الوحيدة، هالة التي اختفت هي وطفلتيها فجأة منذ.. منذ متى؟ ربما شهرين أو ثلاثة لا تذكر، والأغرب أنها لم تسأل. اكتفت بقول مديرة دار الروضة بأن والدة حنى و لجين مريضة للغاية، ثم اكتفت برسالة نصية من هالة مؤلفة من كلمات قليلة فقط:

- بناتي يا رؤى، بناتي في عهدتك

نعم هي تعلم أنها مريضة فما الجديد ولماذا القلق؟!، سيعودون حتمًا، ربما هو في سفر ما، نعم ربما، من يدري!

هل الألم الذي يعتصر قلبها الآن هو ألم فراق ما تبقى من عائلتها فقط، أم ألم الوحدة التي ستزداد وتنهش ما تبقى من انسانيتها، وهل تبقى من آدميتها شيء بعد ما فعلته بأمها؟!.

توقفت حركتها مع توقف جسدها فجأة وقد ودعت الذكريات عند هذا الحد وعدّلت من وضع النظارة الشمسية القاتمة فوق عينيها رغم غياب أشعة الشمس بفعل الرياح القوية المحملة بغبار ورمال القبور من حولها وقد أدركت أنها قد تاهت بين المدافن واختلف الطريق عليها، ابتعدت نعم ولكن ليس كثيرًا، وهي الآن لا ترى أحدًا يمر بها لتسأله، دارت حول نفسها وهي ترفع أناملها تتلمس وجنتها المبتلة من أثر الدموع، ثم قررت أن تمشي في خط مستقيم لتصل إلى ذاك المنعطف التي رأته وهي تشرأب برأسها وتستطيل على أصابع قدميها الطويلة لعلها ترى منفذًا من بعيد.

سارت لخطوات متعجلة متحسسة طريقها والصمت يحوم حولها، يقلقها ويثير مخاوف قديمة برأسها، والحة الموت تنبعث من كل اتجاه، ترى هل يُحاسبون الآن على ما فعلوا في دنياهم، بماذا يجيبون، هل يُعذبون بذنوب أم ينعمون بتوبة؟!، أجفلها نباح كلب يفر في الطريق الغير ممهد من بعيد وقد سهجت الريح فأسرعت تحت الخطى حتى بدأت تلهث بقوة وتتعثر خطواتها التي اقتربت إلى الركض واستحال سواد ملابسها إلى الرمادي بفعل الغبار المتناثر والأكياس البلاستيكية والأوراق المُمزقة المتطايرة من حولها وامامها بفعل الرياح، لحظات أخرى و تراءى لها باب إحدى المدافن القريبة مواربًا قليلاً وسمعت صوتًا ما آتٍ من الداخل، ظنت على الفور بأنه أحد الزائرين لهذا القبر، وأنها قد وجدت أخيرًا مرشدًا لتلك المتاهة الحجرية التي ضاعت بها، صعدت السُلم الصغير واستندت بكفها على حافة الباب وهي تنظر للداخل وتتنحنح بخفوت دافعة الباب بخفة قليلاً وتتقدم خطوات بطيئة متمهلة نحو شاهد القبر باحثة عن مصدر أصوات تُشبه الهمس، إرتفع حاجباها دهشة عندما وجدت المكان خاليًا تمامًا، لا أحد على الإطلاق!

هل كانت تتخيل أم ماذا ؟!!

نفضت القلق عنها وهي تشرع في الإستدارة للعودة ولكن جسدها ارتج للخلف بقوة قبل أن تُكمل استدارتها وارتطمت بأحد حواف الباب الحديدي خلفها بقوة فأغلقته لتصبح وحيدة بالداخل، اتسعت عينيها بذهول ورعب وهي متجمدة تنظر إلى غطاء القبر الذي بدأ يتلاشى فجأة أمام ناظريها وكأن ذرات ترابه وأحجاره تتبخر في الهواء بسرعة كبيرة وتغيب في السماء التي أكفهرت فجأة وأظلمت، بضجيج

يكاد يصم أذنيها، لعرى القبر وظهر جليًا من الداخل ورأت الجسد المسجى بداخله محاطًا بالكفن الأبيض ووجه مكشوف أمامها، لا ليس وجهه، بل وجهها، إنها امرأة .

حاولت أن تتراجع ولكن قدماها تجمدتان عن الحركة فسقطت على ركبتيها هلعًا فوق الرمال المبعثرة على أرض المدفن وغاص قلبها بين أضلعها، حتى شعرت بجنون نبضاته تكاد تخترق حنجرتها، حاولت أن تصرخ ولكن صوتها أختجز في قاع حلقها، عندها أدارت المرأة وجهها الشاحب إليها شحوب الموت وقد رحلت عنه ألوان الحياة وغارت مقلتيها للداخل، تعرفت رؤى على ملامح المرأة وحاولت الصراخ باسمها، هالة !، ولكن صوتها لم يصل لفمها أبدًا، صوت همس هالة كان أشبه برياح تعبر بجوار أذني رؤى فاتسعت عينيها عندما فهمت ما همست لها به والذى لم يكن سوى كلمتين فقط " بناتي .. بناتي " .

***

خرج من عمله مندفعًا نحو سلم الشركة الخارجي، يحمل سترته بأصابعه خلف ظهره وقميصه غير مهندم مفتوحة أول ثلاثة أزرار منه بعبث وكأنه خارج من معركة ما للتو، تابعته عيون رجال الأمن أسفل البناية بفضول وتساؤل، بينما تجاهل لنداءات عادل صديقه و زميله في العمل المتكررة والذى حاول اللحاق به قبل أن يبتعد ولكنه لم يجبه، لقد خصم له منذ قليل لثلاثة أيام أخرى من راتبه على أثر مشاجرة افتعلها هو عندما أخطأ متدرب في أحد أرقام الحسابات، لم يكن مجرد شجار أو انفعال، لقد أمسك بتلابيب الموظف وهو يصرخ به ويسبه، حاول

زملاؤه تقديره ولكنه لم يستحب لتحذيرهم حتى سمعه مدير فرع الشركة الذى اكتفى فى المرة السابقة بمجرد لفت نظره وتوبيخه، أما هذه المرة فلقد تجاوز حدود العمل بكثير، شهر تلو الشهر وهو يفقد أعصابه واتزانه وحب زملائه بسبب سلوكه العنيف والغير مبرر من وجهة نظرهم، لا يعلمون ما يعانيه بعد فقدانها، الندم والألم أصبحا يلوكانه بين فكيهما، المسؤولية التى باتت تثقل كتفيه تجاه ابنتيه بعد غياب والدتهما لم يعد يحتملها، كل يوم يقف عاجزًا أمام حروف جنى و لجين المبعثرة لا يستطيع فهم جملة مفيدة منهما، لا يستطيع التعامل معهما، اكتشف ولأول مرة أنه لم يكن والدهما فعليًا، لا يعرف عنهما أى شيء، ماذا تأكلان، كيف تنامان، ماذا يفعل عندما تستيقظ أحدهما ليلًا باكية من نومها وأحيانًا مُبللة فراشها، تنادي أمها وتبحث عنها فى جميع غرف المنزل وفى النهاية تجف دموعها فوق وجنتيها وهى تنام مرغمة وشهقاتها متواصلة تشق صدره، لا يعلم ماذا يفعل.

هل كنت تحملين كل هذه المسؤولية يا هالة دون أن أدري، دون أن أشعر، بل كنتُ أحيانًا أتساءل ماذا تفعلين طوال اليوم فى غيابي، اليوم علمت، اليوم أدركت، اليوم أنام فى فراش بارد وحدي، أفتقد حتى شجارك معي، أفتقد روحك الدافئة، حبك الصامت لي. لماذا لا نشعر بقدرهم إلا بعد أن يرحلوا، ذهابًا بلا عودة؟

أحتاجك يا هالة أحتاجك بشدة !.

عندما عاد إلى منزله مر فى البداية على شقة والديه ولكنه لم يجدها، ولم يجد البنات أيضًا، ترى أين ذهبت؟، صعد إلى شقته التى لم يعد

يدخلها إلا نادرًا منذ وفاة زوجته وانتقل هو وبناته للعيش في شقة والدته بعد أن أصبحت الوحدة صديقهم الأوحد، دارت عينيه في الأركان وهو مازال يقف على عتبتها، نوافذ شقته كانت مغلقة والستائر تحجب عنها الشمس كما تركها تمامًا، الغبار يعلو الأثاث والسجاد والحوائط، كانت تعج بالأصوات والحركة والحياة، والآن صامتة كالقبر بلا زوار.

لم يستطع أن يخطو خطوة للداخل إلا قبل أن يمد أنامله ليضيء المصابيح، وعندما دخل لم يغلق الباب خلفه، تريثت خطواته وهو يلج غرفة الفتيات ويُشعل ضوئها في البداية قبل أن يلفها بعينيه لثوانٍ، ترى أين خبأت والدته الدفتر التي كتبت فيه هالة خطابها الأخير له وبناته، لقد خشيت عليه والدته الإغيار مرة أخرى فخبأت الدفتر ولم تخبره بمكانه، كانت لديه رغبة قوية في قراءة وصيتها لجى و لحنين ولكن والدته لم تمهله فاستطاع بالكاد قراءة كلمات مبعثرة هنا وهناك في الورقة، تعلقت عينيه فقط بالكلمات التي كررتها هالة للبنات وهي تطمأنهما قائلة مرارًا وتكرارًا:

– سأكون حولكما دومًا، وكعادتي سأنام بغرفتكما دون أن تراياني

ترى ماذا كانت تقصد بتلك الجملة وماذا كانت تعني بتحذيرها إياه عندما كتبت له " احذر غضبي " !

في تلك اللحظة نبأته حواسه بأنه لم يعد وحيدًا في الشقة عندما سمع صوت حفيف ثياب كحفيف أوراق الشجر قادمًا نحوه وشعر بكف باردة توضع على كتفه من الخلف، التفت فزعًا وقد صدر منه رغمًا عنه

شهقة مكتومة، وما أن اكتملت استدارته حتى واجه عينيها وهي تحرك رأسها وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة وتقول:

– العادات القديمة لا تموت !

زفر بقوة والشحوب يودع وجهه وتعود إليه الحياة مجددًا وهو يمسحه بكلتا يديه ثم ينظر لها وهو يرفع عينيه إليها بعتب قائلاً:

– لا أعلم ماهي هوايتك في إفزاعي هكذا كلما حانت لك الفرصة!

ضربت والدته بعصاها على الأرض وهي تضحك بخفوت قائلة:

– لا أستطيع أن أفوت على نفسي فرصة رؤيتك وأنت مذعور هكذا كالأطفال

زفر من جديد وتخطاها حانقًا وخرج من الغرفة ثم من الشقة كلها هابطًا إلى الأسفل ومازال قلبه يحارب ليعود إلى نبضاته الطبيعية، تستغل والدته كل فرصة ممكنة لإفزاعه بمتعة عجيبة وكأنها تلهو منذ أن علمت بالفوبيا التي تصيبه في الأماكن المهجورة والأصوات العالية المفاجئة بجواره .

تحولت ملامحه من التشنج والحنق إلى الحنو والهدوء عندما وجد ابنتاه تقفان على عتبة باب شقة والدته ويرتديان ملابس دار الروضة المخصصة لهما، حتى تُكتف يديها فوق صدرها وتحاول أن تضغط جرس الباب بلسانها و لُجين تدفعها بعيدًا عن زر الجرس بتقزز وهي تنظر إلى لسان أختها وكأنه قد تحول إلى لعاب يريد ابتلاع فريسته

ببرود، أسرع بالخطى نحوهما وحملهما فجأة تحت ذراعاه وهو يدخل بهما شقة والدته هاتفًا بحب:

- أيتها المشاغبتان

لحقت بهم والدته وأغلقت الباب خلفها ووقفت تنظر إليه وهو يدغدغهما وهما تضحكان بصعوبة وتنظران إليه نظرات مندهشة لعدم اعتيادهما على مداعباته أو التقرب منه، تقدمت والدته وجلست على الأريكة العتيقة بجوارهم وهي تقول بلا مقدمات:

- لقد وجدت لك عروس مناسبة

توقف عن الحركة وضاعت نظراته مع اختفاء ابتسامته بالتدريج فلم يبقى منها سوى شبح ابتسامة مرسومة فوق وجه حزين بينما ضحكات البنات كانت تصله وكأنها صدى يتردد من بعيد، ألن تيأس أمه من هذا الحديث، ألن تمل أبدًا؟!.

يكفي هالة وما سببه لها من ألم وعذاب، حتى آخر رمق لها، هل يُدخل امرأة أخرى فى حياته ليعذبها هي أيضًا حتى تموت مكتوية بناره !، رفع رأسه عندما سمع حديث والدته مُكررًا بتصميم هذه المرة:

- هشام، كن واقعيًا، أنا أتحرك بصعوبة وأختك عصبية ملولة تحتمل زوجها بالكاد، ولا تسأل عنا سوى فى المناسبات فقط، والبنات يحتجن إلى أم ترعاهما، اليوم تعبت بشدة عندما ذهبت بهما إلى دار الروضة وهناك بحثت عن عاملة تأتى لتأخذهما كل يوم إلى هناك وتعيدهما ثانية فى آخر اليوم .

لقد استطعت أن أجد مخرج لتلك المشكلة أما بقية مسؤوليتهما فإنا لا أستطيع حلها، أنا أعتنى بنفسي بصعوبة يا ولدي

نهض واقفًا وهو يضع كلتا يديه حول خصره وغصة مُسننة عالقة فى حلقه لا فكاك من ألمها، يكاد يتنفس بصعوبة وهو يشعر بها تقف بجواره وتقول بإصرار:

- إنها تحب بناتك ولديها استعداد لترك عملها و..

هتف وهو يستدير نحوها متسع العينين:

- هل هى تعمل أيضًا؟!

حاولت الحديث ولكنه قاطعها وهو يضحك ساخرًا وحروفه تقطر بؤس ومرارة:

- تعمل!، زوجة أخرى تعمل، ماشاء الله، ثم نخوض حرب ضروس بعد الزواج لرغبتها فى العودة للعمل، ومشاجرات لا تنتهي، وألم وعذاب ثم موت .

- ياولدي هى ستترك العمل بإرادتها وستـ..

صرخ مقاطعًا أمه من جديد وقد صارت عيناه حمراء بلون الدم من فرط انفعاله وهو يسترجع لحظات شجارهما فى أول عام مر عليه بعد زواجه الأول:

- هالة تركت العمل أيضًا بإرادتها من أجلي، ثم ماذا، ألم تشهدي بنفسك على حربها معي لكي تعود لعملها؟!، لا يا أمي .. لا

والف لا، لو كانت هذه الفتاة هي آخر امرأة على وجه الأرض لا تزوجتها أبدًا.

وقبل أن تستوعب كلماته كان قد خرج من الشقة يدق صافقًا الباب خلفه بقوة معلنًا رفضه الصريح لرؤى دون حتى أن يعلم من هي.

***

ها هي قد رُفضت كما توقعت من البداية، وقبل أن يراها من الأصل، فكيف لو رآها؟!، رفعت رؤى رأسها بإحباط تخشى النظر لعين والدة هشام حتى لا ترى انعكاس هزيمتها في معركة لم تبدأ بعد وهي تسمعها تتنهد بحسرة قائلة:

- أعلم يابنتي أنك وافقتي على مضض، لقد حكت لي هالة رحمها الله كل شيء، وأنا الآن وجهي منك في الأرض، لا أعلم ماذا أفعل

ضغطت رؤى الدفتر الذي تركت به هالة الوصية والرسالة بين يديها بانفعال وتوتر رغمًا عنها قبل أن تقول بصوت لايكاد يُسمع:

- لا عليك يا خالة، المهم الآن هو مصلحة جنى و لُجين، أيًا كانت من سيتزوجها لابد وأن تكون رحيمة تستطيع التعامل مع حالة الفتيات بعد أن انزوتا هكذا.

أومأت والدة هشام برأسها مؤكدة وهي تمط شفتيها بحيرة. أين تجد من تتوفر لها هذه الصفات. لقد شاهدت فتيات كثر في المركز الطبي كلما ذهبت للحجامة أو التحدث مع عبير هناك. فهل تجد عندها مطلبها؟. نهضت واقفة متكأة على عصاها بضعف وظهر منحني وقد عقدت العزم على ألا تترك عبير إلا بعد أن تُرشح لها أكثر من فتاة مناسبة لظروف ولدها وبناته. لا سبيل آخر أمامها.

***

اقتران

عادت والدة هشام إلى منزلها بعد أن تركت رؤى على حالتها المحبطة تلك، وبرغم تعاطفها معها إلا أنها وجدت نفسها تلعب من فورها إلى مركز العلاج الطبيعي حيث عبير وفتياتها الكثر من حولها، فمصلحة ولدها في المقام الأول، والمسؤولية الملقاة على عاتقها أكبر عندها من الجميع، ومن أجل العلاقة القوية التي استطاعت والدة هشام تكوينها مع عبير في الفترة الماضية، استمعت لها الأخيرة للنهاية بصبر ثم وعدتها بصدق بالبحث الجاد لها عن زوجة مناسبة، ضربت عصاها على الدرج وهي تتكأ عليها بشرود مستندة إلى بعض الأمل لتصعد الدرجات إلى حيث شقتها وعندما أدارت المفتاح في الباب سمعت خطوات سريعة تصعد إلى نفس الطابق، التفتت عاقدة حاجبيها ثم ما لبث أن انفرجا بانشراح وتغضنت زوايا عينيها بابتسامة مجعدة وهي ترى عادل صديق ولدها يقفز السلم برشاقة صعودًا بجسده النحيل ويبتسم لها وهو يحييها بمرح:

– وأخيرًا التقينا يا جميلة !

ضحكت والدة هشام وهي ترحب به بشدة وتدعوه للدخول. عادل هو الوحيد القادر على إضحاكها برحه المعتاد. تحبه كولد ثانٍ لها وتعجب دومًا من قدره المشابه لقدر هشام في كل شيء تقريبًا. هو أيضًا رحلت عنه زوجته وتركت له طفل حديث الولادة وقد فاضت روحها إلى بارئها أثناء ولادته. الفارق الوحيد بينهما أنه وزوجته كانا عاشقين. وبعد فراقها رفض كل حديث عن زواجه بأخرى. لم يكن يتصور امرأة أخرى بجواره بعد حبيبته الراحلة. وانشغل بالاعتناء بطفله بمساعدة والديه. حتى هذه اللحظة!

عندما دعته للجلوس في الداخل وهي تستعد لدخول المطبخ لإحضار مشروب له أوقفها رافضًا ثم سأل عن هشام فتنهدت بأسى وهي تشير برأسها للغرفة الداخلية:

- نائم كالعادة بجوار بناته

استدارت لتعود إلى المقعد المجاور له وهي تستند كليًا على عصاها مكتفًا يديها ثم تركن بدقنها إليهم متابعة بعدم رضا:

- بعد عودته من العمل يقضي معظم يومه نائمًا كما ترى يا ولدي

ارتكز عادل إلى فخذيه بمرفقيه وهو يطرق بكعب حذاءه الأرض قليلًا متمتمًا:

- أصبحت أعصابه على المحك، كل يوم يفتعل مشكلة ما مع أحدهم

ناظرته بقلق بينما هو ينهض ويأتي بمقعد خشبي عتيق يضعه أمامها بشكل عكسي ثم يجلس فوقه مواجهاً لها محاولاً الحديث بجدية:

- اسمعي يا خالتي، لابد وأن تزوجيه. إن الزوج حلت مشاكله فلان صديقي

لمعت عيناها ساخرة وهي تشير إليه بذقنها هاتفة:

- انظروا من يتكلم !!

رفع كلتا يديه باستسلام مدافعاً عن نفسه:

- لا لا لا، خالتي أنا مختلف

- بل أنت متخلف

حاول ألا يقهقه بقوة ولكنه لم يستطع منع ضحكة عالية بالظهور لثوان قبل أن يكبتها بكفيه معتذراً وهي ترمقه ليصمت فلعل على مضض قبل أن تشير إليه ليقترب بانتباه تام وقد بدا عليها أنها على وشك البوح بسر عظيم. فاقترب وهي تهمس له:

- زوجته رحمها الله كانت قد حدثتني قبل وفاتها عن فتاة وحيدة تعمل في دار الروضة القريبة من هنا وهي معلمة للطفلتين أيضاً، وأعدها

عدة مرات وتعرفت إليها وهي فتاة طيبة ومؤدبة للغاية وحنونة جدًا على الأطفال.

سكتت هنيهة ثم أشاحت بوجهها يسارًا بتذمر وهي تستمر بالهمس بعد أن مصمصت شفتيها:

– ولكن المحروس ولدي رفضها دون حتى أن يراها بمجرد علمه بأنها عاملة.

أومأ برأسه مؤكدًا وكأنما يساندها في تذمرها وهي تتابع أسرارها الحربية مغمغمةً:

– حتى بعد أن أخبرته بأنها ستترك العمل ظل على رفضه وثورته.

واشتعلت عيناها بحماس جاء كزائر جديد على حديثها وهي تلوح بيدها بتصميم حتى كادت أن تصيب عينيه:

– خمس فتيات رأيتهن وأنا في مركز العلاج الطبيعي الذي أعالج فيه ولقد وعدتني الطبيبة هناك بأن تأتي إلي بالمزيد، بيني وبينك الطبيبة صديقتي ولكنني لا أحب التفاخر كما تعلم!.

كان يومىء برأسه بلا توقف وهو يرهف سمعه لها وما إن انتهت حتى قال بخفوت يبادلها أسرارها:

– هل هي جميلة؟!

عقدت حاجبيها بتفكير لنصف دقيقة كاملة قبل أن تقول بتردد

- لا أعلم يا ولدي هل يصح أن أصف لك امرأة منقبة أم لا

رفع حاجبيه مندهشًا قبل أن يهتف بغرابة:

- العروس منقبة؟!

- إنها حتى غير محجبة يا معتوه

- أنت من قلت بأنها منقبة

- أنا أتحدث عن الطيبة أيها المختل

أعاد رأسه إلى الوراء بإدراك متأخر:

- آآه ، فهمت

مجددًا مصمصت شفتيها وهي تنظر له مستهجنة جهله المطبق وهي تتحسر بهدوء:

- يبدو أن ولدي ليس هو العروس وحده كما كنت أظن

حرك رأسه نفيًا وهو يجيبها :

- صدقيني يا خالتي، الخروسين كُثر في هذه البلد الجميل

رغمًا عنها ابتسمت ابتسامة واسعة وهي تهز رأسها متعجبة قبل أن تنظر في عينيه بمكر متسائلة وقد ظهرت لها لمعة حديثة في عينيه:

– عادل، أنت قررت الزواج أخيرًا، أليس كذلك؟

اتسعت عيناه بدهشة قبل أن يراوغ مجددًا:

– أوتقرأين الأفكار أيضًا، قلبي الصغير لا يحتمل؟

نهرته بجدية هذه المرة متجاوزةً عن مزاحه الثقيل هاتفة بوجهه:

– لن تفلح مراوغتك، أنت قررت الزواج، صحيح ؟

أطرق برأسه أمام ذكائها ومعرفتها به وقال معترفًا متهربًا من عينيها:

– أنا رجل في النهاية يا خالتي وأحتاج إلى شريكة لحياتي، والطفل أيضًا يحتاج إلى عائلة متكاملة. ولكنني لم أجد امرأة بالمواصفات التي أريدها بعد .

ناظرته بهدوء وهي تفكر في الدقائق القليلة السابقة، عندما انتابها الحزن على وحدته للحظات وعشقه لامرأته المتوفاة، والذي بدأ ينحصر بجوار تلك اللمعة المضيئة في عينيه بمجرد أن أعاد التفكير في المسألة، وتضع نفسها في كفة الميزان الأخرى وهي التي وهبت عمرها لتربية ولدها بعد رحيل زوجها وصممت على ألا تمنح نفسها لغيره مهما حدث .

لماذا تقارن الآن وهي من سعت للبحث عن عروس لولدها بمجرد أن علمت بمرض هالة المميت، أهو ذاك دور البطولة الذي يتلبسنا بعوارضه دومًا عندما يتعلق الأمر بالآخرين؟!، أم هي فقط سُنة الحياة؟

وجدت وجهها يرتفع تلقائيًا نحوه وتسأله بتفهم:

- هل تريدني أن أرشح لك واحدة؟

ازدرد ريقًا وهميًا وتنحنح ليجلى حنجرته أو ليُخفى ارتباكه ربما وهو يجيب بتمهل:

- أعجبتني مواصفات العروس التي رفضها هشام دون أن يراها. فقط أريد أن أعرف، هل هي جميلة؟

تعجبت أكثر وهي ترفع كتفيها بحيرة وتقول:

- أنت وذوقك

- كيف !

زفرت بنفاذ صبر منها وقد احتدم الصراع بداخلها، ماذا تفعل، هل تُعطى فرصة أخرى لـ هشام ربما يُعيد النظر فهو الأنسب لها، أم تعتمد على وعد عبير وتترك لـ رؤى فرصة مع عادل، حسمت أمرها أخيرًا بقرارها أن تترك الأمور عالقة بعض الشيء وتمسك بالعصاة من المنتصف فقالت:

- بُني، كل رجل وله ذوق مختلف، فمثلاً في الماضي كانت الفتاة ممتلئة القوام هي الأجمل في عين الرجال وهي ذات الحظ الأوفر في طلب يدها للزواج، أما الآن فربما الوضع يختلف بعض الشيء، ربما تكون جميلة في عيناي ولكنها لا تعجبك، أنت وذوقك !

وأنه يُغمض عين بينما يبقى الثانية مفتوحة وهو ينظر لها بريب هاتفًا بإدراك:

- خالتي، أنت تلاعبيني !

ضربت عصاها في الأرض حانقة وهي تنهض صائحة فيه ونظراتها تحيد بعيدًا عنه:

- اسمها رؤى وأنت تعرف عنوان دار الروضة، اذهب وانظر إليها، ولا تتحجج بي، سأذهب لأوقظ صديقك المخبول مثلك !

تبعتها نظراته وهي تلج الغرفة الأخرى وهو يمرر أصابعه بين خصلات شعره الكثيف مفكرًا في الأمر بجدية أكبر. سيفعل ما قالته يحق قبل أن تتصرف غاضبة. سيذهب ويراها ويتحدث إليها ربما تعجبه، بالتأكيد خالة لن توصي إلا بفتاة تأمنها على ابنها وبيتها، لن تأخذ مكان زوجته السابقة حتمًا فهي قد تركت وجعًا مستمرًا في خافقه الذي كان يعشق كل تفصيلة بها، ربما تساعد رؤى في تسكين هذا الألم وتُعيد إلى روحه الراكدة لمحة من حياة غادرت بلا عودة، ولم لا؟!.

***

- أنت تُشبه الأطفال في تشبثك بما تريد يا عادل، سأنصرف حالاً

كانت العبارة الخانقة لـ هشام الذى ألقاها وهو يدس كفيه بجيب بنطاله وهو يستدير مستعدًا للانصراف ولكن عادل تمسك بمرفقه بقوة وهو يجذبه ليعيده بجواره أمام السور الخارجي لدار الروضة هاتفًا برجاء:

- وتتركني وحدي فى هذا الموقف؟!

زفر هشام بعدم رضا وهو يلوم نفسه على استسلامه لرغبات صديقه المراهق الكبير، عندما أخبره عادل برغبته فى الارتباط مرة أخرى، بارك هشام هذه الخطوة الجديدة التى كان يتوقعها منذ أسابيع وهو يشعر بحاجة صديقه للزواج مُجددًا، ولكن لا ينكر أنه فوجىء عندما علم برغبة عادل فى الزواج من نفس الفتاة التى رشحتها له والدته من قبل، ومع تصميم عادل الذى لم يستطع الفكاك منه اضطر إلى الإنصياع له ومرافقته إلى دار الروضة ليراها صديقه من بعيد أولاً حتى إذا أعجبته يقفز إلى الخطوة التالية ويحدثها عن رغبته بزيارة رسمية لبيت عائلتها، فى البداية رفض الذهاب معه بشدة فالأمر برمته لا يخصه، ولكن عادل قطع عليه الطريق بمكر وهو يسأله إن كان قد أعاد التفكير فيها كعروس مستقبلية مما جعله يزفر فى النهاية مُعلنا موافقته وها هو الآن يقف بجواره كمراهقان يتسكعان أمام مدرسة للبنات فقط!

جاءت أمام عادل الفرصة التى كان فى انتظارها منذ ساعة على الأقل وعبرت إحدى عاملات النظافة من البوابة الداخلية للدار ومرت بالحديقة الصغيرة حتى توقفت أمام صندوق القمامة الخارجي وهمت بأن

تضع به أحد أكياس القمامة الكبيرة السوداء، تحرك عادل سريعًا نحوها وراء هشام يتبادل معها الحديث قليلاً قبل أن يدس في يدها ورقة مالية ما ورآها تبتسم له وهي تُشير بأصبعها إلى كلتا عينيها وتستدير لتعود للداخل، قطب هشام ما بين حاجبيه بضيق وهو يتوقع الحديث الذى دار بينهما، لم يكن استياءه بسبب الحديث نفسه، بل للطريقة السهلة التى يستخدمها عادل دومًا ليحصل على ما يريده ببساطة لا تذكر طالما يملك ثمنه !

وضع عادل يديه بابتسامة زهو فى جيبي بنطاله الجينز وهو فخور بذكاءه ويحث الخطى نحو هشام الحانق الذى ينظر فى ساعته كل ثانيتين تقريبًا، وعندما اقترب منه هتف هشام بقلة صبر:

- عادل، أمامك خمس دقائق فقط وسأتركك هنا وأنصرف، اليوم الدراسي أوشك على الإنتهاء ولو حضرت أمي صدفة ووجدتني هنا لن يمر الأمر هكذا ببساطة، وأنت تعلمها جيدًا .

لم يكد ينتهي هشام من إلقاء وعيده، حتى وجدا العاملة تعبر الباب خروجًا مرة أخرى وتتجه نحوهما بابتسامة واسعة متأملة وتُسرع الخطى نحوهما بنظرات تلمع بالنصر المؤزرا، اقتربت العاملة منهما وهى تمد يدها لـ عادل بالهاتف المحمول، وبالرغم من قِدم تاريخ تصنيعه إلا أن كاميرا الفيديو به تُسجل بشكل لا بأس به، تناول عادل الهاتف منها واقترب بجسده من هشام وهو يُعيد تشغيل الفيديو التى سجلته العاملة

في رؤى وهي تتحدث بتلقائية بداخل أحد الفصول مع الأطفال وتمازحهم بلطف، تعلقت عيني عادل بعينيها لدقيقة كاملة وابتسامة خفيفة علت شفتيه مما جعل هشام ينظر إلى الدقيقة الأخرى الباقية في زمن الفيديو بفضول ثم تساءل مُتمتمًا:

- هل هذه هي ؟

أومأ عادل برأسه ومازالت الابتسامة تعلو شفتيه وهو يُدقق بملامحها الصغيرة مما جعل هشام يوقن بأنها سكنت منطقة الفؤول بقلب عادل وخصيصًا وهو يرى نظرة الرضا والشغف التي تتراقص بعيني صديقه منذ بداية تشغيل مقطع الفيديو حتى نهايته، لم يكن هشام وحده من لاحظ ابتسامة عادل بل العاملة أيضًا فعلت وهي تتحفز في وقفتها منتظرة بقية الإكرامية بلهفة وشغف، ولم يخب ظنها، منحها عادل ورقة أخرى بسخاء هذه المرة وهو يشكرها ويناولها هاتفها وعندما انصرفت مُسرعة تكاد تطير من السعادة برغم ثقل وزنها، التفت عادل نحو هشام وهو يحاول رسم تعبير حيادي على وجهه قائلاً:

- أعتقد أنني سأنتظرها لأتحدث إليها، لو أردت الانصراف أنت، لا بأس

رفع هشام حاجبيه بخبث وهو يستند إلى حافة الباب الخشبي القصير والملون الذي يقف بجانبه يريد التلاعب بصديقه قليلاً قائلاً:

- انا غير مُتعجل، لو أردت الإنصراف أنت فافعل

لم يلحظ عادل نبرة المزاح في صوت هشام مما جعله يرفع وجهه متجهمًا نحوه، كان هشام يريد الاستمرار في مزاحه ولكن ملامح عادل في تلك اللحظة كانت كفيلة بأن تُطلق العنان لضحكاته العالية وهو يُمسك بذقن عادل ويقول بأسلوب ساخر:

- هل وقعت في الحب من أول مقطع فيديو يا صديقي؟

حرر عادل ذقنه وهو يدفع هشام بغيظ وقبل أن يرد عليه رأى بعض النساء مقبلة نحو باب الدار من أكثر من اتجاه فعلم بأن اليوم الدراسي قد انتهى وستخرج له عروسه الغافلة عن ما يحدث حولها بين لحظة وأخرى مما جعله ينسى هشام تمامًا ويلتفت بكامل انتباهه مراقبًا الباب الداخلي، نظر هشام إلى ساعة معصمه وقرر التحرك على الفور قبل أن تخرج الفتيات أو تراه والدته ويقع فريسة بين يديها .

لم يشعر عادل بانصراف هشام وهو يراها تخرج حاملة حقيبتها وتتحرك بخفة بين الأطفال المندفعين للخارج بتهور، لا يعلم لماذا تتعلق عينيه بعينيها تحديدًا ولا يكاد يحيد عنها، هذه ليست خصاله أبدًا، فهو كالمعتاد في مثل هذه المواقف يحدق بالفتاة بالكامل ولابد وأن يحصل جسدها على نسبة نجاح لاختباراته لا تقل عن تسعون بالمائة، هذه فقط التي ودون أن تدري أسرت عينيه بداخل عينيها وجعلته غير قادر على تحريكهما بعيدًا عنها، نظرتها الطفولية تقطن بها دمعة خفية تلمع من خلف زجاجها الشفاف، ربما هي دمعة تأثر وقد كانت يدها تربت نحو

على وجه طفلة يظهر عليها أنها من ذوي الاحتياجات الخاصة، هل هي حنون إلى تلك الدرجة!، وعندما التفت إلى العاملة وأنها تصورها اعتقدت بأنها تمزح معها فبادلت الكاميرا ابتسامة بريئة وكأنها تبتسم له هو بالذات، سر ما بها، ربما عندما يقترب يستطيع فك اللغز .

تقدمت العاملة منها وهمست لها وهي تشير بأصبعها نحو عادل الذي استطاع المرور بسهولة من بين النساء والوقوف بأقرب مكان منها، اقتربت منه بروتينية وارهاق واضح وهي تتوقع أن يكون أحد أولياء الأمور ويريد السؤال عن ابنته، وعندما وقفت أمامه مرحبة به بعملية ومن دون ابتسامة واحدة، تلعثم قليلاً قبل أن يتمالك نفسه ونظراته تتمركز بداخل عينيها متسائلاً:

- آنسة رؤى ؟

أومأت برأسها مؤكدة بصمت منتظرة أن يبدأ بتعريفها باسم ابنته ولكنها فوجئت به يقول على الفور:

- هل من الممكن أن تمنحيني عنوانك بالضبط !

***

كاد أن يقع على وجهه بعد أن تعرقل بأحد درجات السلم ولكنه حافظ على اتزانه في اللحظة الأخيرة وهو يمسك بسوره الحديدي واعتدل ينظر خلفه بتذمر نحو والدته التي كانت تدفعه من الخلف

ليصعد بعد أن لاحظت تردده ووقوفه عن الحركة لثوان. عدل من قميصه الأزرق بفتور وهو يزفر بشدة ويطمئن على وضعية علبة الحلوى الكبيرة في يده الأخرى ثم يكمل رحلة الصعود للطابق الرابع بلا حول ولا قوة، ها هو قد أطاعها رُغمًا عنه بعد أن نفذت حججه وقد أتت له بعروس يتوفر بها الشروط التي تمسك بها ورفض رؤى من أجلها، فتاة لم تكن تعمل في يوم من الأيام، محجبة، وعلى استعداد لتقبل ظروفه وتربية بناته كما يحب، حاول أن يهرب من حصار والدته كثيرًا ولكنها لم تيأس وظلت تطارده بمكرها لأيام، مرة تدعي المرض وترفض إعداد طعامه، ومرة تضغط عليه بالحديث المتواصل عن عادل صديقه الذي أخذ منها مواصفات رؤى وعنوان عملها في دار الروضة وفي الأسبوع التالي اتصل بها ليدعوها لحضور حفل زواجه البسيط والسريع. تمشي خلفه من غرفة لأخرى تحكي له عن العروس الجميلة التي رشحتها لها عبير وامتدحتها بكل الصفات الرائعة، حتى يأس وأصبحت حياته لا تُطاق، وأخيرًا اضطر للرضوخ والموافقة. الفتاة يتيمة الأبوين وتعيش مع عمها في تلك البناية في الطابق الرابع الذي كاد أن يتجاوزه أثناء شروده لولا والدته التي جذبته من ذراع قميصه متأففة من ضياعه وهي تتنفس بأنفاس متلاحقة بأنهما وصلا إلى الشقة المنشودة. استدار وهو يُخلص قميصه من قبضتها ويهتف من بين أسنانه بغيظ :

– أمي، لماذا تعامليني هكذا، احترميني قليلاً ؟

الزيارة ومن الواضح من المقابلة الدافئة والمرحبة بشدة بأن الأمر لاينقصه سوى تعارف الطرفين فقط، عرف من حديث الرجل بأنه عم العروس وفي مكانة والدها تمامًا لديها، وهي تعيش معه هو وزوجته منذ أن فقدت والديها، تبادلوا الأحاديث حول ظروف هشام الخاصة متطرقين إلى وفاة زوجته الأليمة وغيرها من مناقشة وضعه المادي الذي لم يختلفوا حوله أبدًا، ثم طال الحديث عن والد العروس رحمه الله ومدى تعلقها به وتعلقه بها بشكل خاص حتى أن هشام وجد عينيه تدمع رغمًا عنه وتعاطف معها دون أن يراها .

من الواضح أن العروس خجولة للغاية وتخشى اللقاء، فزوجة عمها خرجت إليها عدة مرات وفي كل مرة تعود بدونها، حتى أن الظنون بدأت تراوده حول رفضها له.

طرقات خفيفة على الباب من الخارج قطعت عليه أفكاره وجذبت انتباهه ونظراته لقدمين تلجان إلى الغرفة بتردد واضح وكأنها تريد العودة من حيث أتت، صاحبتها رائحة مسكية ليمونية أنعشت حواسه، مرت عينيه مرتحلة على تفاصيلها من أسفل إلى أعلى ببطء، اصطدمت نظراته بأصابع كفيها المتشابكة ببعضهما البعض بتوتر أما معدتها وكأنها تعاني ألمًا ما بها، ولكن عينيه لم تتوقفا بل استمرت في الصعود راحلة حتى جاء دور وجهها أخيرًا في الظهور أمام شاشتيهما البراقة، في تلك اللحظات كانت والدته تقوم بدورها في احتضانها بحفاوة ودعوتها

للجلوس بجانبها، تافقت نظراته وهي ترجو والدته بالابتعاد قليلاً، لا زال يريد وجهها أكثر، جلست بجوار والدة هشام مطرقة إلى الأرض وجهها متورد بخوف أكثر منه خجل، لم يتحدث إليها وترك لوالدته العنان، فهي كفيلة بالأمر، بالإضافة إلى أنه مشغول بمراقبة وجهها المختبئ أكثره خلف حجابها الرقيق حوله، انشغل عقله بمدى التقارب والتمازج بين لون حجابها ولون عينيها، وفي هذه اللحظة اكتشف بأنه كان يبتسم، وبان عمها وزوجته كانا يراقبان ابتسامته تلك عن كثب بملامح منشرحة، ترى هل هذه نفس ابتسامة عادل وهو يشاهد رؤى؟، ابتسامة القبول !

تنحنحت والدته وهي تنهض موجهه حديثها نحو زوجة العم وهي تطلب منها الذهاب للحمام، بإدراك شديد نهضت المرأة سريعًا وهي تأخذ والدته للخارج وبعد ثوان لحق الرجل بهما وتركهما وحيدين ولكن برفقة بعضهما البعض .

شكر هشام صنيع والدته بداخله وهو يلتفت نحو عروسه محاولاً جذب طرف حديث ما بينهما يجعلها تنظر إليه وتتحدث معه، هو يعلم بأنه لا يجيد الحديث لذلك تنحنح عدة مرات يجلي صوته وهو يضع كأس العصير الساكن بيده على الطاولة الصغيرة المقابلة له والفاصلة بينهما، وبدأ بسؤالها عن أحوالها بشكل جعله يبدو كأبله أو معتوه كما تقول له والدته دائمًا وهي تقرعه، وعندما وجد منها إجابات تشبه

الهمس إلى حد كبير، بحث عن موضوع ربما هي تحبه فيجعلها تتكلم بأريحية أكثر فاختار أن يسألها برقة عن والدها وما قاله عمها عن علاقتها القوية به، وبالفعل نجح في جذب انتباهها وجعلها تؤكد له ما أخبره به عمها من معلومات عنه، عادت عينيه تدمع من جديد عندما رأى الدموع تترقرق في عينيها بحزن وهي تتحدث عن تدليله لها والذى افتقدته بشدة .

ضعفها أمامه جعله يشعر في لحظة بمسؤولية خاصة تجاهها، حشرجة رقيقة بصوتها سببتها الدموع، أشعلت رغبة بداخله للبحث عن إجابة سؤال ساحر طاف بوجدانه .

سؤال حول لون عينيها عندما تبتسم، كيف ستكون يا ترى؟، كانت رأسها قد عادت للأسفل من جديد وهي تجفف دموعها برقة عندما سمعته يناديها مشاكسًا:

– جديلة

رفعت رأسها نحوه بدهشة بالغة من جرأته، كيف واتته الجرأة ليرقق اسمها هكذا بعد دقائق من لقائهما الأول؟!، مسحت وجهها بكفيها وقد احتقن لونه للغاية وهو يتابع بتلذذ، مراقبًا تقلب أنفاسها البادية بقوة في تسارع صدرها صعودًا وهبوطًا:

– والدك كان فنانًا حقًا في اختيار هذا الاسم ليخصك به

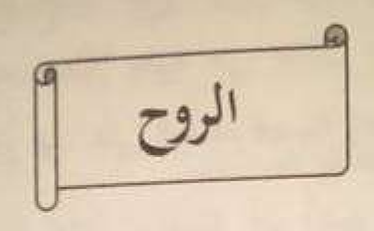
لم تمهله عائلتها وقتا إضافيا ليستمتع بهذا الشعور الغريب الذى بدأ يغزوه وهو يرى مدى تأثيره عليها بمجرد أن رفع اسمها فقط، طرقة واحدة على الباب النصف مغلق دخل بعدها عمها ومن نظرة واحدة لابنة أخيه علم بأنها فى ورطة ما، اقترب منها فوقفت ناهضة على الفور وهو يحيط بكتفيها متسائلاً باهتمام:

– جدايل، هل أنتِ بخيرٍ حبيبتى؟

أومات برأسها له وهى تهمس برغبتها فى العودة لغرفتها على الفور، تركها تغادر وهو يستشعر سخونة وجهها واحمراره المبالغ فيه وجلس يستكمل الحديث مع هشام باهتمام وحماس متجاهلاً البَرْق الظاهر بقوة فى عينيه، وعند عودة زوجته ووالدة هشام بدأ الحديث يأخذ مجرى آخر وتلقائي بعد أن تكلمت والدة هشام بصراحة عن إعجابها بـ جدايل ورضا والدها الواضح دون الحاجة لسؤال، فى البداية كان قلق بخصوص التفاصيل المادية التى ستُطلب منه وبالأخص لأنها لم تتزوج من قبل ولكنه وجد العكس تمامًا والرجل يُيسر له ويقول له بصراحة أن يأتي بما يستطيع تحمله فقط.

وبدون أن يرى الدكتورة عبير كما تقول عنها والدته دومًا شكرها بداخله عن الهدية التى قدمتها له دون سابق معرفة، " جدايل " هدية لا يليق بها سوى تدليل كتدليل والدها لها

***



الروح

كان ذلك اليوم مختلفًا جدًا، مختلفًا لدرجة أن لاحظ زملاءه فى العمل تبدل حاله بشكل مفاجىء، بداية من رجال الأمن على بوابة الشركة الذين لم يصدقوا أنفسهم وتبادلوا مع بعضهم البعض نظرات مندهشة عندما مر بهم فى الصباح بابتسامة واسعة وهو يلقى عليهم تحيته التى غابت عنهم لشهور، أما الخمسة موظفين الذين تضمهم غرفة مكتبه بداخل الشركة فلم يكونوا أقل اندهاشًا، بل على العكس، ردوا تحيته وهم يحملقون به ويتأملون هيئته الجديدة، ذقنه الحليق، ملابسه المهندمة، يده التى ترتفع بالسلام على كتف كل من يقابله منهم، يوزع ابتساماته بالعدل على الجميع، واحد فقط من الخمسة هو من لاحظ قلق دفين خلف تلك النظرات المُشعة، ومن يكون سوى صديقه الوحيد.

عندما جلس هشام أخيرًا خلف مكتبه وهو يُرسل نظرات ضاحكة رُغمًا عنه نحو عادل الذى كان ينهض من خلف مكتبه ويتقدم نحوه، أحنى عادل جذعه تجاه هشام وهو يربت على كتفه هامسًا بتفكُه:

– هل يعني هذا أنه تم تحديد موعد الزواج؟

التفت إليه هشام محاولاً كبح جماح شيء مزهر لا يعلم كنهه، يخرج بتلال سعادة بقلبه، مطلاً بقوة من خلف نظراته يعلن عن نفسه ويفضح صاحبه، وهو يرد على همسته بهمسة زاجرة قائلاً:

- دعني الآن يا عادل وأعدك أن أشبع فضولك عندما ينتهي العمل، اتفقنا؟

اعتدل عادل واقفًا وهو يرفع كلا حاجبيه ويحرك رأسه ويتنهد بيأس من صديقه، نعم لقد تغير مظهره، بدى الإشراق على وجهه، ولكن، هشام سيظل هشام إلى الأبد، يخاف أن يعلن عن سعادته أمام الناس، يخشى إظهار فرحته لهم، يعتبر الحب سرًا من الأسرار العليا لا يجب أن يعلمها أحد، بل ولا يلاحظها من الأساس، يخاف من الحسد؟، أم ربما يرى الحب ضعفًا يجب أن يوارى خلف الحجب!

في نهاية اليوم وفى هشام بوعده وهو يسير بجوار عادل ويحكي له القول الذى شعر به عندما رأى جدايل لأول مرة، وكيف قابلته عمها وزوجته مقابلة حسنة ومتفهمة لظروفه، وكيف عجلت والدته بالأمر كالسرع من سلق بيضة من دجاجة يتيمة، ولم تنتظر حتى أن يصلي صلاة استخارة، وقامت بكل الاتفاقيات اللازمة بالنيابة عنه فى جلسة واحدة بحماس منقد وكأنها تترافع فى قضية رأي عام!، ولقد كان حدس عادل فى محله تمامًا فبالفعل تم تحديد موعد عقد القران فى نهاية هذا الأسبوع، والزفاف فى نهاية الأسبوع المقبل، وهذا يعني أن أمامهما عدة أيام فقط للتعارف، وعليه أن يجعلها تعتاد عليه بعض الشيء قبل الزفاف.

وضع عادل مجموعة من حبات الفول السودانى دفعة واحدة بفمه ثم قال باعتراض:

- والدتك لم تقم بعملها كما يجب

التفت نحوه هشام بدهشة بينما حافلة ذات لون أحمر باهت تمر بجواره مُسرعة وتلال من البشر يتعلقون بأبوابها المفتوحة وعادل يومىء برأسه مؤكدًا:

- نعم لم تقم بعملها جيدًا، كان يجب أن تتعلم من والدتى، فلقد اتفقت فى جلسة واحدة على زفاف مباشرة خلال عشرة أيام فقط، وتم لها ما أرادت

كاد هشام أن يُعلق ولكنه لاحظ شرود عادل بعض الشىء وهو يستطرد بنظرات غامضة:

- ربما لأن ظروف رؤى زوجتي مختلفة، فهى وحيدة

تنحنح هشام وقد أدرك للتو أنه نذل كبير، فلم يخطر بباله مرة واحدة منذ شهر كامل، مذ أن حضر حفل الزفاف الصغير لصديقه أن يسأله عن أحواله مع زوجته الجديدة، وهل هو مرتاح معها أم لا!، فهو يعرف عادل جيدًا، إنه عكسه تمامًا، يكتم الحزن بداخله ويرتدى قناع المرح دومًا ليداريه عن الناس، أما السعادة فهو كفيل بالإعلان عنها لكل من هب ودب!، فلقد أعلن خبر زواجه على الشركة بأكملها بمجرد أن اتفق على موعد الزفاف، بل وتعارك مع مدير فرع الشركة لأول مرة ليحصل على إجازة لأسبوع كامل، وعندما عاد من أجازته لم

يكن يمشي بل كان يطير على أجنحة السعادة بينهم، أما ومن أيام قليلة، فقط عدة أيام لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، تبدل حاله، أصبح يشرد كثيراً، وهو لم يكلف نفسه ليسأله لماذا!، حسم قراره وخصاله بعدم التدخل فى شؤون الآخرين تجاربه وتسائل بحزم لم يقصده:

- بمناسبة حديثك عن زوجتك، كيف حالك معها أنت وطفلك؟

زفر عادل بقوة وقد ظن بأن هشام لن يسأله أبدًا، فهو يحتاج للحديث ولكن لا يعلم ماذا سيقول بالضبط، إنها مجرد مخاوف لا يعلم لماذا تراوده بشأنها، نفض كفيه من بقايا قشر الفول السودانى العالقة به ودسهما فى جيبي بنطاله كعادته وقد توترت نظراته قليلاً وهو يقول:

- لا أخفي عليك ياصديقي، فى البداية كانت علاقتنا جيدة للغاية ولقد شعرت بحبها لي وحاجتها لحبي، وأصدقك القول هى تهتم بي وبطفلي بحب لم أكن أتخيله، ولكن فى الأيام الاخيرة تبدلت قليلاً، هناك شيء ما تخفيه ولا أعلم ماهو !

رفع هشام يده يحك ذقنه مفكرًا وهو يمط شفتيه ثم عقب قائلاً:

- تقصد أنها لم تعد تهتم ؟

حرك عادل رأسه على الفور نافيًا وهو يجيب والحيرة تزداد بقلبه وعقله أكثر:

- لا، هى تهتم بلا شك ولكن، تُخفي أمرًا ما عني، منذ أيام خرجت ولم تخبرني تاركة طفلي عند والدتى، وعندما سألتها بهدوء ثارت

بدون مبرر واتهمتني بأنني أحبسها بالبيت وأراقب خطواتها كالمجنونة.

- ألم تعرف إلى أين ذهبت؟

ودون أن يجيبه توقف فجأة أمام دكان صغير زجاجي يعرض أنواع شتى من الزهور وابتاع منه باقة ورود صغيرة مختلفة ألوانها. جمعها له البائع بمهارة وسرعة بداخل عقدة حمراء اللون زاهية، دفع عادل ثمنها وهو يتأملها برضا، وعندما خرجا ليتابعا سيرهما، استكمل عادل حديثه وكأنه لم يتوقف قائلاً:

- المشكلة بالنسبة لي ليست أين ذهبت، أنا أثق بها وأعلم أن النساء تحتاج أحياناً إلى التسوق بعيدًا عن سأم الرجل السريع، المشكلة أنها تضع بيننا المسافات والحواجز وتخفي الأمر عني، أصبحت تشرد كثيراً وعندما أسألها تتهرب مني

نظر هشام إلى باقة الزهور بيد عادل وقال ساخرًا:

- وهذه الزهور رشوة بالطبع لتبوح بما تخفيه

ضحك عادل بخفة وهو يرفع الزهور يستنشقها بقوة ثم يردف مبتسمًا:

- نعم هي رشوة بالفعل، ولكن لأمر آخر، لأنها طلبت العودة إلى عملها اليوم صباحًا ونحن نتناول الإفطار سويًا وأنا رفضت فغضبت مني، حاولت مصالحتها والتفاهم معها ولكنها أوصدت

باب غرفة النوم وهتفت من خلفه بطفولية بأنها لن تخرج حتى أرحل .

سكت هشام تمامًا وهو يتنهد بعمق وهو يسبل أهدابه حتى كاد أن يصطدم بالعجوز الذى مر بجانبه، وبداخله يحمد الله على أنه سبحانه ألهمه بعدم الموافقة على الزواج منها، ماذا لو كان تزوجها وقلبت حياته إلى جحيم لتعود للعمل مرة أخرى كما تفعل الآن مع عادل وكما فعلت هالة معه من قبل .

توقفت أفكاره للحظات عندما قفزت ذاكرته إلى هالة الراحلة، التى قامت بنفس العاصفة عندما رفض أن تعود لعملها بعد الزواج، ولكنه لم يأت لها بزهور، تركها تغضب وتصيح كل يوم وعندما سئم أحد يبادلها صياحًا بصياح وشجارًا بشجار واستحالت حياته إلى جحيم فعلي لم يخرجه منه إلا حملها بالتوأم جنى و لجين .

لكزه عادل بكتفه ليعبر معه الطريق سريعًا ويهبطا إلى أقرب محطة مترو، وعندما وقفا على الرصيف فى انتظار القطار القادم، نظر هشام نحو عادل وقال وكأنما يتحدث إلى نفسه:

- وهل تعتقد أن الزهور تأتي بنتائج مع امرأة عنيدة، مُصممة على ما برأسها

ابتسم عادل وهو يعلم بأن هشام فى هذه اللحظة لا يتحدث عن رؤى، إنما هو عالق فى ماضيه، فمال باتجاهه قائلاً بخفوت:

– المرأة لا تكون عنيدة إلا عندما يهملها زوجها يا هشام، فزيد لفت انتباه بعندها كما يفعل الأطفال، لذلك أنا على يقين بأنها تريد العودة للعمل لا للعمل نفسه ولكن لأنها شعرت بانشغالي في الأيام الماضية وبدأ اهتمامي بها يتناقص

ورفع باقة الزهور أمامه وهو يتابع بمرح ماكر:

– وباقة الزهور هذه كفيلة بالأمر، مع كوب من غزل غير عفيف، ورشة من شغف رجل بامرأته لا تستطيع أن تصده، وهكذا أستطيع أن آكل عنادها هنيئًا مريئًا !

بُوق القطار قضى على الحروف المتبقية من حديثه وتحفز جميع الناس على محطة القطار وعندما توقف أمامهم بفرد طوله على الرصيف الطويل وفتحت أبوابه اندفع الناس إليه، لدرجة أن من يحاول الخروج ربما يدخل مرة أخرى بقوة الدفع، هذه القوة البشرية هي التي دفعت بـ هشام للداخل بصحبة عادل ولكن عقله كان وحيدًا تمامًا، منفصل بالكلية عما يحدث من حوله، والتساؤلات تدور بذهنه بلا توقف، لماذا كان يظن زوجته لا فائدة منها، ولماذا لم يلجأ إلى ناصح امين كـ عادل له خبرة في التعامل مع المرأة، ربما كانت مشاكله قد حلت معها، كان يرى حياته معها بمنظور واحد، منظور متجمد، لو تهدمت الدنيا حوله لن ينظر لها من غيره، ولن يحيد يمينًا أو يسارًا، ربما كان سيجد بابًا آخر يلج منه إلى نقطة تفاهم مع هالة، كان دائمًا يحاول فتح باب خلفي، بينما الباب الأمامي مُشرع على مصرعيه !

***

زخاتُ مطر خفيف تتسابق واحدة بعد الأخرى فوق سطح زجاج نوافذ السيارة المؤجرة، تلاعب المسّاحات الأمامية لها وتتحداها أن تستطيع محوها بسهولة، بينما طرفاها الخفيضة المتابعة ترفع رايتها البيضاء مُعلنة الهزيمة أمام قوة ضربات قلب جدايل الساكنة على المقعد المجاور لـ هشام وهو يقودها إلى بيته. إنها تُحب صوت تلك الطرقات الهامسة على الزجاج المجاور لها، طيلة العام تنتظر الشتاء لتنصت لها ليلًا من خلف نافذتها المُغلقة وكأن بينهما خبيئة ما، تتلحف بغطائها الصوفي الثقيل وتُغمضُ عينيها، " المطر" تنام على ترنيمته الهادئة كرضيع فوق ساقي والدته وبين ذراعيها مسترخيًا بجسده فوق صدرها وهي تُدهدهه بلحن يعتاده يوميًا، ما بالها الآن لا تستطيع أن تستمع له وقد ذوى صوته وتراجع خلف نبض خافقها الذي يضج بين أضلعها بصعوبة مؤلمة، خوفًا، قلقًا، أو انتظارًا !

لو كان الإنتظار يقتل لقتلها في التو، لماذا ضاقت المساحة الفاصلة بينهما بداخل السيارة هكذا، تكاد أنفاسه الثقيلة بصحبة عينيه المتعلقة بالطريق تبتلع الهواء بالكامل بداخل السيارة الغارقة بهما في اللازمان، تكفي شحنات التوتر التي لازمتهما منذ بدأت منحنيات الطريق يشير إلى اقتراب منزله، متى سيصلان وينتهي الأمر لتبدأ رئتيها في التنفس من جديد .

كان يلتفت نحوها بطرف عينيه بين دقيقة وأخرى ثم يعود ليتابع الطريق محدقًا، يكاد يسمع دبيب أفكارها المشتتة بوضوح، تشي بها بشرتها المتقلبة الألوان بين الوردي المُحبب والشحوب الشديد، وهي

تتابع بعينيها حبات المطر، بداية قوية لشتاء يعده بالكثير، أحيانًا يذكرنا الشتاء بما فقدنا، أو ربما بما كنا نملك ذات يوم !.

لقد فعل كل ما بوسعه في الأيام السابقة ومنذ أن عقد قرانهما ليجعلها تعتاده كخطيب وزوج، جلسات مطولة بينها وبين بناته، كانت لها نصيب الأسد من الزيارات العائلية وقد كان يترك لها مجال الانفراد بالفتيات وحدهما لفترة طويلة كما طلبت منه ليعتادا على وجودها معها، كان يفرح باهتمامها بهما وخصيصًا أن قالت له والدته بفخر ذات مساء:

- جدايل قالت لي أنها قد اشتركت في دورة لعلاج تأخر النطق عند بناتك

خجلها المتزايد لم يكن يترك له فرصة سوى بعض المكالمات الهاتفية التي كان معظمها من نصيب والدته، والدته التي كانت شريكًا أساسيًا في اختياراتها لأثاث بسيط احتل أركان شقته من ثلاثة أيام فقط. أصر هشام من البداية أن لا يعيشان مع والدته بشقتها، ولم تُمانع الأخيرة أو تعترض وكأنها هي أيضًا أصابتها حمى الخوف من تكرار الماضي، فأحضرت امرأة تعرفها لفتح شقته وتنظيفها حتى صارت جديدة براقة وباعت جل أثاثها القديم، لتتأنق الشقة بأثاث جديد للعروس القادمة على استحياء، ها هي قد أوشكت على التخلص من هذا العبء الثقيل ورميه على أكتاف أخرى، بداخلها يعرف بأنها شاركت في تعاسة ولدها مع هالة، ضميرها يؤلمها ويحثها على عمل أي شيء لتراه سعيدًا مستقرًا مرة أخرى، فكل شيء مباح في الحب والحرب !، والآن تقف

بالنصار فى صدر الشقة وأمام بابها بعد أن وضعت طعام العشاء للعروسين.

وجبة فاخرة تركت من أجلها حفل الزواج الصغير الذى لم يحضر فيه سوى المقربون فقط، حتى عادل حضر وحده واعتذر عن عدم حضور زوجته لمرضها، وجعلت ابنتها وزوجها يقلأها بسيارتهما إلى المنزل لتعدها كما يجب، ولتضعها فى شقة ولدها قبل وصوله هو وعروسه.

استمعت إلى أصوات أقدام وحفيف ثياب ثقيلة تصعد السلم فتحركت على الفور تجاه باب الشقة المفتوح من البداية لتستقبلهما أمامه قبل دخولهما، كان المطر قد نال من ملابسهما فابتل فستان العرس الأبيض ولم تنج حلة هشام من البلل التام وقد خلع سترته بمجرد أن خرج من سيارته ورفعها فوق رأسيهما لتحجبهما قدر المستطاع من الماء، أقبلت والدة هشام تُحيىء جدايل وتحتضنها وقد دمعت عيناها بهدوء وراحة عندما بادلت هشام الاحضان وهى توصيه بعروسه، ولم تنس أن تلذعه بلسانها قبل أن تغادر هامسة فى أذنه:

- أرفع راس أبيك يا ولد

تركته والدماء تغلي في عروقه بسببها وهبطت للطابق الأسفل لشقتها حيث ينتظرها فراشها الدافىء بجوار الفتاتين النائمتين فى فراشها منذ أن حملهما زوج ابنتها من سيارته ووضعهما فى سريرها والصرف هو وزوجته دون تقديم عرض مبتذل عن اصطحاب البنات معهما ولو حتى لحفظ ماء الوجه، ولما يفعلان؟ وماذا لو وافقت؟ لا .. الأفضل ألا يتدخلان من البداية كما هما دوما!

حلت جدايل فستانها الثقيل بفضل البلل وهي تلج للداخل ولم تنس تنظيف حذائها جيدًا قبل الدخول بينما تبعها هو تُغلقًا الباب خلفه بهدوء، وقف بجانبها يلتقط انفاسه ويراقبها وهي تتجول بنظرها بين أركان صالة الاستقبال بتمعن وكأنها تتأكد أن كل شيء مكانه تمامًا كما وضعته أول أمس. ابتسم بخماس وهو يدعوها للجلوس قليلًا ولكنها قالت بخجل وهي ترفع ذيل فستانها عن الأرض :

- سأدخل لأبدل ملابسي أولاً، ذيل الفستان مبتل وقد علق به التراب وأخشى أن تفسد السجاد أكثر من هذا

أومأ لها موافقًا برأسه وهو يتنحنح محرجًا دون سبب واضح، خلع حذائه وتركها تدخل غرفة النوم بينما تقدم هو قاصدًا أول مقعد أمامه وجلس وهو يُرجع ظهره للخلف مغمضًا عينيه محاولاً الاسترخاء قليلاً وتجميع عنايد أفكاره المندفعة بكل اتجاه بعقله. اليوم كان مُرهقًا جدًا له، اضطر إلى عمله صباحًا لعدة ساعات قبل أن يذهب بعد مداولات عدة لمحاولة الحصول على أجازة زواج لأيام، والتي لم يستطع أن يحصل منها سوى على يومين فقط يليهما يوم الجمعة والسبت، أجازة طويلة بالنسبة له لم يحصل عليها من قبل سوى في الأعياد !

هل تأخرت جدايل بالداخل أم هو فقط يتوهم، أم لعله يشتاق؟!.

زفر وهو ينهض واقفًا لا يدري ماذا يفعل، أخذته قدماه دون إرادة نحو غرفة ساله المغلقة، فتحها برجفة دفينة لا يعلم سببها ودخل ويده تسبق قدميه وترتفع تلقائيًا نحو زر الإضاءة كعادته، وقف يتأمل الغرفة النظيفة حوله بذهن شارد ويداه تدفأ بجيبي بنطاله، يشعر بالاشتياق

الشديد لأول مرة بحياته، هل لأنها عروس جديدة؟، ولكن لا، لقد كان يشعر بهذه اللهفة لرؤيتها وللحديث معها في كل مرة يذهب لزيارتها، أو تأتي هي لوالدته، في كل محادثة هاتفية كان يتذرع بأي موضوع لتطيل الحديث معها ويسمع صوتها أكثر، فهي خجلة جدًا، يراها غامضة، هل يكون هذا هو سبب شغفه، كونها غامضة عليه، لا تتحدث بالكثير، لا تثرثر، مازالت كتابًا مُغلقًا مُدون بلغة أخرى غير لغته .

" ألم أقل لك " !، عبارة رن صوتها بخاطره جعلته ينتفض، ويتراجع للخلف بظهره حتى خرج من الغرفة و يسحب بابها معه ليغلقها مُجددًا، يرى حروفها ترتسم بعقله وقلبه معًا، وكأن أحدًا ما يشاركه قلبه وعقله ورأى ما يدور بهما فأجابه على الفور بها، مجرد حروف ولكنها صاخبة جدًا، ضج بها فؤاده، " إذا تزوجت بأخرى غامضة صامتةً ستصبح شغوفًا بها، على عكسي " !، مرر كفه على خصلات شعره وأصابعه تنغرز فيها بتوتر شديد وكلماتها السابقة له تسحق ضميره سحقًا وتذكّرهُ بها سماء عينيه .

– هشام !

استدار سريعًا للخلف وأهدابه ترفرف بقوة وكأنه يجبر عقله على الخروج من ذكرياته ليرى من تقف أمامه في هذه اللحظة، ليستعيد حاضره، أطرق للحظات وهو يحاول تهدئة أنفاسه المتصارعة بصدره ثم رفع رأسه نحوها مبتسمًا بمرح زائف وسألها:

– هل تخططين لقتلي جوعًا ؟!

ابتسمت جدايل وهو تطرق برأسها هامسة:

- آسفة، تأخرت بالفعل

تأملها قليلاً قبل أن يُشير نحو الطاولة ذات السطح الزجاجي والبيضاوية الشكل التي تتوسط المقاعد الذهبية اللون وقد وضعت فوقها والدته صينية ضخمة مستديرة مملوءة بالطعام. تحركت جدايل بين المقاعد حتى اختارت واحدًا وجلست فوقه بخفة. بينما جلس هو قبالتها والطاولة تفصل بينهما وبدأ يزيح الستار عن الطعام الشهي والصمت يعتلي اجتماعهما المنفرد هذا لأول مرة ويفرض سيطرته. لم يكن لأحد منهما شهية كبيرة فنهضا من جلستيهما تلك بعد دقائق معدودة وهو يدعوها ليُصلي بها ركعتين وهو بداخله يتمنى أن تقضي الصلاة على توتره وتشتت أفكاره هذا ولو بعض الشيء، وبالفعل بدأ الهدوء يعم قلبيهما عندما وقفت خلفه وكبر هو للصلاة. كان يحاول جاهدًا أن يُركز كل تفكيره في الكلمات القرآنية التي يتلوها بينما شيطانه يجذبه نحو ذكرى بعيدة. حُرمت فيها هالة من هذه الراحة النفسية التي تنساب الآن بين هشام وجدايل. فلم يكن لأي منهما دراية بماتين الركعتين الخفيفتين وقد انتهت بهما الليلة الأولى نهاية درامية للغاية. أعقبها تدخل سافر من والدته في اليوم التالي قضى على الكثير من فرحتيهما بأولى أيامهما سويًا.

تركها لدقائق بعد الصلاة ليبدل ملابسه خارجًا ثم عاد إليها وبداخله حماس لأن تكون هذه الليلة مختلفة عن ما عاشه من قبل، وفي الصباح لن يسمح لوالدته بالتدخل وسيقف لها بكل حسم إن حاولت حتى، لن يفرط كما فرط مع هالة .

عندما عاد إليها كانت تقف امام المرآة الكبيرة تُعدل من مظهرها بعد تخليها عن ملابس الصلاة

فوقف حائلاً بينها وبين المرآة مما جعل التوتر يعود إليها وتطرق برأسها أرضًا .

- جديلة

عندما ناداها مُداعبًا لم ترفع رأسها ولكنه استطاع أن يرى ارتعاش جانبي شفتيها ربما بابتسامة صغيرة، أمسك بكفيها وقبلهما برقة هامسًا محاولاً استعادت جميع الدروس المُستفادة التى أخذها من عادل طوال الأيام السابقة:

- أشعُر بمشاعر مختلفة لأول مرة بحياتي، لأول مرة قلبي ينتفض شوقًا عندما أقترب من امرأة، حقيقة أنتِ تمنحيني الكثير، أكثر مما كنت أتخيل أن أشعر يومًا

لأول مرة!، همست بحيرة دون أن ترفع رأسها وهى تحاول جاهدة السيطرة على ارتعاشاتها المتواصلة:

- أنت كنت متزوج من قبل !

أرسل تنهيدة طويلة وقد انتقلت حيرتها إليه ربما عبر أناملهما المتشابكة الآن والتى يضغطها برفق بين أصابعه:

- نعم، ولكن صدقيني، أنا أحيا معكِ مشاعر تطرق باب قلبي لأول مرة

ارتعاشة أخرى لاحظها على جانبي شفتيها فأراد أن يرى الأبتسامة بوضوح، يريد أن يستمتع بمزيج مشاعرها مع لون عينيها المُميز وهى تبتسم لعينيه عن قُرب، مد يده أسفل ذقنها ليرفع رأسها إليه، رفعت عينيها المتوترة المُهتزة فى البداية نحوه بصعوبة وهى تجاهد لأن لا تنظر فى عينيه مباشرة، رآها تحيد بعينيها جانبًا نحو المرآة من خلفه وفجأة امتقع وجهها وشحب كالأموات، وصرخت وهى تندفع للخلف بقوة وتتعثر وتسقط أرضًا بعد أن اصطدم ظهرها بالحائط من خلفها، ملامح الرعب التى ارتسمت على وجهها وعينيها التى تجمدت على المرآة جعلته يتصلب مكانه للحظة وهو لا يستوعب ما حدث، ابتلع ريقه بصعوبة عندما أفاق من صدمته وهو يلتفت خلفه، لا شىء!، المرآة تعكس صورته بشكل طبيعي جدًا، عاد برأسه إليها فسقط قلبه بين قدميه عندما وجدها قد غابت عن الوعي.

لحظات عصيبة مرت به وهو يحاول إفاقتها بعد أن حملها فوق الفراش وغطاها جيدًا وهى لا تستجيب، وأخيرًا بدأت تتأوه وترمش بعينيها مرارًا قبل أن تفتحهما بشكل كامل، نظرت إلى وجهه المتلهف القريب من وجهها للحظة لا يُدرك عقلها بعد ما حدث، وفجأة استعادت ذاكرة الدقائق السابقة دفعة واحدة، فصرخت من جديد وهى تنظر نحو المرآة، ضمها إليه بقوة وهو يحول رأسه نحو المرآة لثانية ثم يُسيطر على انفعاله بها ويحاول تهدئتها بينما تمد يدها باتجاه المرآة مرتعشة وهى تهتف بصوت مبحوح من الرعب الشديد المُسيطر عليها:

- زوجتك، فى المرآة

عاد يضمها بقوة أكبر إلى صدره من جديد وهو ينظر ثانية إلى ما
لتشير ويقول بصوت لم ينجح في إظهاره متماسكًا:

- لا شيء حبيبتي، أنتِ تتوهمين

حركت رأسها المضمومة إلى صدره بقوة رافضة وهي تصيح:

- لا، رأيتها، كانت تبكي يا هشام، أنا متأكدة

تنحنح لا ليجلي صوته بل لطرد تلك القشعريرة التي دبت بجسده بشدة وقد فشل في جعل نبرته هادئة، كاد أن يسألها وكيف تعرف شكل زوجته السابقة ولكنه تذكر في اللحظة الأخيرة أنها رأت صور عدة لها بصحبة حتى و لحين عندما كانت تحضر لزيارتهما في شقة والدته، لايعلم ماذا يفعل، التوتر يفرض سيطرته على جسده والبرودة تتسلل إليه بمكر يفقده صوابه، هو الرجل، ويجب عليه تهدئتها حتى ولو كان مرتعبًا وهو لم ير شيئًا، فكيف لو رأى !

- حبيبتي، اهدئي أرجوك، أرتاحي قليلاً أنتِ مُتعبة فقط .

كان يشعر بصدرها يعلو ويهبط بجنون وجسدها الذي بين يديه ينتفض بقوة وبكاؤها يعلو شيئًا فشيئًا وهي تهتف بلوعة وخوف:

- كانت تبكي يا هشام، ولكن ليس دموع، كانت تبكي دمًا !

ماذا يفعل؟!، يضمها بقوة ولكن عينيه تدور حوله، يُقنع نفسه بصعوبة بأنها تهذي بالفعل وهو يهمس بآية الكرسي ويمسح على شعرها بيده الأخرى، وقعت عينيه على هاتفه الموضوع فوق المنضدة الصغيرة بجانب الفراش فمد يده وهو يميل بجذعه يمينًا حتى استطاع أن يلتقطه،

مرر أصابعه فوق أزراره دون أن يفلتها حتى صدح منه صوت الشيخ أحمد العجمي يتلو سورة البقرة، وضع الهاتف بجانبهما وعدل من وضع جسده وهي تتشبث به أكثر حتى استطاع الإستناد بظهره إلى ظهر السرير جاذبًا الغطاء حوله هو الآخر يتدثر به معها وهو يهمس لها بأن كل شيء سيكون بخير وربما هو الخوف من ليلة الزفاف هو من جعلها ترى أشياء لا وجود لها، أغمض عينيه بصعوبة عندما هدأت أنفاسها في صدره محاولاً إقناع نفسه بما كان يقنعها به منذ قليل !.

***

قضى نومه بين أحلامه المُعذبة له والتي لم تسمح له بالإنسلاخ منها إلا بعد أن تسرب إليه رائحة دُخان قريب من أنفه، هناك شيء ما يحترق !، انتصب فجأة في مكانه جالسًا فوق سريره وعقله يجاهد صحوته المفاجأة، ولم تكن عينيه بأقل مجاهدة من عقله وهي تحاول بكل الطرق اختراق سحابة الدخان الكثيفة المحيطة به والتي تملأ الغرفة بالكامل. قفز من فوق الفراش هاتفًا باسمها وهو يخرج من باب الغرفة باحثًا عنها، بمجرد خروجه من الغرفة اصطدم بجسد امرأة لم يتبين ملامحها ولكنه استطاع تميز صوتها وهي تزجره باستياء:

– انتبه لخطواتك يا معتوه

سعل بقوة محاولاً كتم أنفاسه المختنقة وقد بدأ عقله بتميز الرائحة وما يحدث حوله، وهو يسألها متبرمًا:

– أمي، ما كل هذا البخور، هل تنوين حرق المنزل !

مازالت تمسك بالشال الكبير المتدلي منه المبخرة الدائرية، وتحرك يدها به حركات دائرية وهي تحيه بجدية:

- هذا بخور التبر يا ولدي، يدفع عن المنزل العفاريت والأرواح. زوجتك حكت لي ما حدث لها بالأمس عندما أتيت إليكما في الصباح، وهي الآن في الأسفل بصحبة بناتك

تبعت حديثها بأن ظلت تظل حولها وهي تتمتم:

- انصرفوا، انصرفوا

زفر بقوة وهو يعود إلى الداخل محاولاً إلتقاط أية ملابس من الحوائط ليدفأ تمامه ويهبط إلى شقة والدته ليتفقد زوجته، طرق الباب بقلق فاستمع إلى وقع أقدام صغيرة تتسابق نحو الباب مصحوبة بضجيج يعرفه، فتح الباب واندفعت الفتاتان نحو ساقيه بشغف، كل واحدة منهما تحتضن ساقًا وتدفع أختها بعيدًا، انحنى إليهما وحملهما إلى الداخل وهو يقبلهما مغلقًا الباب بقدمه وعيناه تبحث عنها حتى وجدها تخرج من الممر الصغير المؤدي للمطبخ تحمل بيديها صحن فاكهة صغير كانت تعده للفتاتين، رفعت وجهها نحوه وهي ترد تحيته بابتسامة خفيفة خجولة وتكمل سيرها حتى وضعت الصحن على الطاولة الخشبية العتيقة ثم التفت إليه ورائه وهو يضع حتى على الأريكة بينما لجين تتمسك بذراعه وهو يحاول إقناعها بأنه سيحملها مرة أخرى بعد قليل حتى وافقت على تركه أخيرًا، تسابقت الفتاتان إلى الطاولة حيث صحن الفاكهة بينما ثبت هو عينيه في عينيها وهو يتقدم إليها، وعندما وقف أمامها تمامًا بادرته قائلة بحرج بالغ:

- آسفة لما حدث بالأمس

وضع كفه على ذراعها وهو يمسده صعودا وهبوطا عدة مرات وهو يتفحص عينيها باهتمام

- هل أنت بخير؟

أومأت برأسها مؤكدة وهي تنظر نحو باب الشقة المقابلة حيث فتح ودخلت حالا مغلقة الباب خلفها وهي تقول بتجهم موجهة حديثها نحوهما

- تركت لكما البخور في المطبخ، لو حدث شيء آخر اشعلاه على الفور حتى تخرج من الشقة ولا تعود

التفت هشام نحوها يريد سؤالها عن ما تتحدث ومن تقصد ولكنه خشي الإجابة، ربما عقله يرفضها ولكن خوفه القابع فوق عرش المنطق بعقله أمره ألا يفعل، منذ أن كان يستمع إلى تلك الحكايا عن أرواح الموتى التي تسكن الأماكن التي كانت تعيش بها يصدق ويوافقها، بل ومرت ذكرياته عن رسالتها التي تركتها للبنات أمام عقله كشريط سينمائي، تلك الرسالة التي لم يقرأها جيدا ورغم ذلك عيناه حفظت تلك الجملة التي كررتها هالة كثيرا في كل سطر بها وهي تقول لهما أنها ستبقى معهما دائمًا في غرفتهما وتنام بجوارهما ولكنهما لن يستطيعا رؤيتها، وضعت والدته يدها على كتفه وهي تقول بجدية

- خذ حذائك واصعد إلى شقتك الآن، سيمر زوج أختك بعد قليل ليصحبني معه وسآخذ معي البنات

عقد جبينه متسائلاً بتعجب شديد:

- إلى أين ؟

ملأت رئتيها بالهواء وقد ظهر الإنشراح على قسمات وجهها وهي تبتسم ابتسامة حلوة وتجيبه:

- اجراءات السفر يا بُني، العُمرة، هل نسيت؟، سأسافر بصحبة أختك وزوجها !

لمس كتفها بحنان وهو يقترب منها وقد تشتت أفكاره أكثر وأكثر، وبدى كالطفل الذى لا يريد فراق والدته وهو يقول باعتراض:

- لقد كنتُ أمرّ عليكِ كثيراً لإتمام الإجراءات وأنت كنت تؤجلين الأمر، فلماذا الآن؟

- كنتُ أريد الإطمئنان عليك مع زوجتك يا ولدي، وها قد تزوجت والحمد لله، وأختك وزوجها سيذهبان للعمرة خلال أيام فلماذا التأجيل وأنت تعلم كم أشتاق للذهاب منذ فترة طويلة، فلم يعد في العمر بقية .

أعتصر قلبه وهو يرى دمعة الشوق بعينيها، لا يستطيع منعها، هو أكثر شخص يعلم مدى اشتياقها للسفر إلى مكة، هذا الشوق الذى جعلها تعصر على نفسها ليمونة كما تقول دومًا لتسافر بصحبة زوج ابنتها الذي لا تطيقه، وكيف تطيقه وهى لا تُطيق ابنتها من الأساس، الحمد لله أنها تُطيق نفسها أصلاً !

عندما صعد إلى شقته ومعه زوجته كان متربصًا بعض الشيء وهو يتلفت حوله بعينيه فقط كي لا يثير انتباهها، أما في الظاهر فلقد كان يبدو مرحًا وسعيدًا ليبثها الإطمئنان اللازم، ربما كان خائفًا قليلًا ومتوترًا، ولكن سحابة الشوق انزوى خلفها بقية المشاعر الأخرى وهو يعيش تجربة أخرى يظللها الشغف كما لم يكن من قبل. كرفيف لأجنحة عصفور صغير وهو يستعد للتحليق للمرة الأولى راهنًا منتشيًا، يسحب نفسه ببطء ونعومة من بين فكي الماضي، بداخله يهمس لها بصمت مطبق، طهريني من أفعالي السابقة معها، امنحيني صكوك الغفران، غلفيني بالأبيض، بينما تضج خلاياه وعروقه كلها نابضة بصخب، لا يسمع مناجاته سواه

هكذا يكون الشغف إذن ؟!

***

مضت الأيام التالية هادئة ورائعة، شرفت الإجازة على الإنتهاء، إنها قصيرة للغاية، كمن تذوق حلواه المفضلة وقبل أن يأكل تُنزع منه بقسوة، إنه اليوم الأخير قبل العودة إلى العمل والإنخراط فيه مجددًا، استيقظ من غفوته عندما أصر رنين الهاتف على ألا يتوقف حتى يجيب، تململ في فراشه الدافيء لها ومد يده يلتقط هاتفه مجيبًا بنبرة ناعسة، ومن يكون غير صديقه عادل الذي لديه القدرة على بعثرة خططه دفعة واحدة، حماسه المفرط وهو يدعوه لزيارة عائلية تتعارف فيها زوجتيهما إلى بعضهما البعض ربما تصيران صديقتين مثلهما .

حاول هشام الرفض فلقد كان ينوي قضاء اليوم بالمنزل كعادته ولكن حماس عادل كان مشتعلاً أكثر مما يجب مما دفعه للتسليم في النهاية والموافقة .

رحب عادل بصديقه بحفاوة وهو يستقبلهما عند باب شقته، ولم ينسى أن يُلقي تحية خفيضة ترحيبًا بزوجة صديقه دون أن ينظر لها مباشرة، كانوا لا يزالون عند باب الشقة المُغلق خلفهم بينما أقبلت رؤى ترحب بضيوف زوجها وهي تحمل الطفل بين يديها، وعندما إلتقت عينيها بعيني جدايل للمرة الأولى استطاع هشام ملاحظة شحنة توتر سرت بينهما بشكل خفي، أخفض هشام بصره وهو يسير بصحبة عادل للداخل وقد أيقن في التو من نظراتها الغامضة نحو جدايل أن رؤى لم تنسى له أنه رفضها في يوم من الأيام بينما قبل « جدايل، اضطر في النهاية إلى أن يومىء برأسه لها على الموافقة وقد دعتها رؤى للجلوس في الغرفة الأخرى لتجلسا بحرية أكثر بعيدًا عن مجلس الرجال.

مرت دقائقه متوترة بأفكاره وهو يحاول جاهدًا التركيز مع صديقه والاستجابة لدعاباته ببعض الإبتسامات الخاوية، بينما ذهنه في مكان آخر والتوقعات تتلاعب به عما يحدث في الداخل الآن، ترى هل ستخبرها بأنها كانت عروسًا مرشحة سابقة له من قبل والدته، هل ستقول الحقيقة بأنه رفضها دون أن يراها حتى أم ستقلب الموازين وتلبس برأس جدايل حكاية خيالية تحفظ بها ماء وجهها، وتُعثر بها صفاء حياته الوليدة معها !، استطاع بالكاد أن يلتفت لسؤال عادل عن أحواله مع

زوجته فاوما برأسه وقد راودته سعادة خفية متذكرًا الأيام الثلاث السابقة ولكنه ما لبث أن قطب جبينه وقد أصرت ذكرى ليلة الزفاف وما حدث فيها على العبور بذهنه لتشتته أكثر وتعكر عليه سعادته. لاحظ عادل عبوس جبهته قليلاً فوضع كفه على ساق هشام وهو يتسائل عن سببه باهتمام، زفر هشام للحظة مخرجًا بعض الفعالات السلبية التي تكدست بغبارها فوق أيام عسله الأولى معها وهو يتمتم بخفوت:

- ليلة الزفاف حدث أمر غريب

أرهف عادل سمعه وهشام يميل نحوه ويقص عليه سيرة علاها القلق رغمًا عنه وكأنه يراها مرة أخرى أمام عينيه الآن، وما أن انتهى حتى قال عادل وهو يستند بظهره للخلف رافعًا حاجبيه وكأنه وجد الأمر أيسر مما كان يظن:

- عملت خيرًا بأنك قمت بتشغيل سورة البقرة بجواركما، فحتى وإن كانت تتوهم نتيجة خوفها المفرط ربما من ليلة الزفاف وهذا ما أظنه، فهي ستبعث الإطمئنان والراحة في المنزل لثلاثة أيام متواصلة

ثم تابع ساخرًا وهو يحرك رأسه كالدرويش:

- ودون الحاجة إلى شُغل البيضة والحجر الذي قامت به والدتك في الصباح

ضحك هشام دون مرح حقيقي وهو يلقي نظرة للداخل بطرف عينيه وعقله يعمل بطاقة قصوى ليجد سبب يجعله يتذرع به لينادي زوجته ليطمئن عليها أو حتى ليتصرفا في الحال، لقد مضت ساعة كاملة وهذا يكفي، بل يكفي جدًا في الواقع !، أضاءت فكرة ما بعقله دون ترتيب فنظر إلى ساعته وهو يطلب زوجته فمازال أمامهما تسوق طويل في أحد متاجر ملابس الأطفال قبل أن يعودان إلى المنزل لينام باكرًا وقد انتهت أجازته وحان وقت العمل.

منذ أن غادرا منزل عادل وهو ينظر إليها من وقت لآخر متمعنًا في ذلك الشحوب والتوتر الذي كسى وجهها منذ أن خرجت من الغرفة الداخلية تصحبها رؤي، ياترى ماذا قالت هذه الرؤى لها جعلتها شاحبة هكذا، تناول كفها بين أصابعه وهو يسير بجوارها فلاحظ ارتعاش كفها وبرودتها الشديدة، لم يعد يقدر على الصمت أكثر من هذا، يخشى المواجهة ولكن لابد منها ليعلم ما يدور برأسها نحوه:

– أصابعك باردة جدًا

وكأنه قد جذبها من فوق حافة جبل ثلج تسلقه بصعوبة وهي تحبس أنفاسها خشية السقوط، فسمع شهيق عنيف تملأ به رئتيها ثم تجيبه بارتباك خفيض ولون الحياة يعود لوجنتيها بعض الشيء:

– أشعرُ بالبرد، قليلًا

– هل أنت متعبة، نذهب للبيت على الفور؟

حركت رأسها نفيًا محاولة استعادة بعض الحماس لتختلق به صوتًا حتى لا يشعر بشيء فيسألها، وهي تخشى السؤال، لا تريد الخوض، لاتريده بشدة فأجابته:

- لا.. الصغيرتان ستبتهجان بشدة إذا فاجئتهما بالملابس الجديدة، ربما هذا يحمسهما للعودة إلى الروضة مجددًا وقد انقطعا عنها الأيام الماضية

عندما دخلا إلى متجر ملابس الأطفال وقفا للحظات عيناها تطوف بالمكان بتمهل، فالمتجر كبير وكل ركن به يحوي نوعًا مختلفًا من الألوان، حسب تصميمه، وقعت عينا جدايل على ركن تميز بألوانه الوردية الزاهية والأبيض المتداخل معها بلفتة أنثوية خاصة، فتقدمتها خطواتها دون تفكير وقبل الخطوة الثالثة وجدته يجذبها برفق من مرفقها، وعندما استدارت إليه وجدته يشير إلى ركن آخر يطغى على ألوان ملابسه اللون الأزرق والسماوي، وقبل أن تتحدث أخذها نحوه ووقف يختار تصميم مناسب للصغيرتين، عثر سريعًا على مبتغاه فأمسك بفستانين بيديه وهو ينشرهما أمامها قائلاً بحماس:

- ها .. ما رأيك؟

نظرت إلى الفستانين بإحباط وهي تمط شفتيها بعدم رضا وتقول:

- إنهما لا تحبان اللون الأزرق، الوردي والأبيض يليقان بهما أكثر

وكأنها لم تقل شيئاً، طوى الثوبين على ساعده وهو يبحث عينه عن العامل ليتابعهما وهو يقول بعملية:

- الأبيض والوردي يتسخان سريعاً، أنا أعمل لمصلحتها ومصلحتك

رأت العامل يقترب أكثر فقالت سريعاً باعتراض:

- الأمر لا علاقة له بالمصلحة، بل بإدخال السرور عليهما، وإن اتسخا فأنا المسؤولة عن تنظيفهما لا أنت

وقف العامل قبالتهما فمنحه هشام الثوبين بعصبية نوعاً ما وأمره بأن يغلفهما وعندما انصرف العامل التفت نحوها وهو يقول بحسم:

- جدايل، أنا لا أحب الجدال في الشارع، الناس تنظر إلينا، انتظري حتى نعود للمنزل

- انتظري حتى نعود للمنزل !، وهل سيجدي النقاش وقتها إذن؟!!

وعندما وقف أمام الخزينة وهو يخرج محفظته وقفت بجواره امرأة يبدو أنها تخطت السبعين وربما أكثر، رفعت العجوز يدها وبأصابعها حركت نظارتها الطبية حتى سقطت على أنفها ثم رفعت رأسها نحوه وعيناها تنظر إليه من فوق عويناتها مما جذب نظره إليها، فمالت إليه قليلاً وهي تهمس بصوت يضج بالسخرية المخلوطة ببحة مميزة:

- أنت الوحيد الذي سيسعد بهذه الملابس الجديدة، لا الصغار ولا زوجتك. مبارك عليك، يليقان بك حقًا !

ضحكت بخفة وهي تدفع ثمن مشترواتها للحرية، نظر لها بغيظ وشكر فسيتفادت لتنصرف وهي ترمي له عبارتها الأخيرة

- سامحني استمعت إلى حديثكما رغمًا عني، فأحببت أن أبارك لك سعادتك وتعاستهم

تحركت المرأة بخفة لاتتناسب مع عمرها بشكل جعله يرقبها حتى اختفت بين العارضات المعدنية المعلقة بينها الثياب، بينما عقله يسافر به بعيدًا جدًا، حيث متجرًا آخر أيضًا ولكنه كان متجرًا للألعاب

- هشام، انظر حبي أريد هذه اللعبة، تعلقت بها منذ دخولنا إلى هنا، وهي مناسبة لها جدًا

- لا سأشتري أخرى أفضل، هذه ستكسر سريعًا

- لا تقلق أنا سأعلمها كيف تحافظ عليها، هذه مهمتي

- قلت لا، ما اخترته لها مناسب أكثر

- هشام، هي من ستلعب بها لا أنت !

- هالة، لا أحب النقاش في الشارع، أنت تعلمين ذلك

- اشترها يا هشام، اشترها لتلعب بها أنت، مبارك عليك اللعبة !

انتفض جسده وذهنه يعود لواقعة من جديد بهتاف عامل الجرينا وقد نفذ صبره:

- سيدي، أنت تسد الطريق على من بعدك، هل ستدفع أم لا؟!

تحرك جسده بعيدًا وهو يحرك رأسه نفيًا ولكن عقله مازال عالقًا بين خطين فاصلين يقف هو الآن بمنتصفهما، التفت نحو المكان التي تقف فيه جدايل الآن، فوجدها مطرقة برأسها للأسفل، عاقدة ذراعيها فوق صدرها وترسم بكعب حذائها دوائر صغيرة متداخلة على الأرض الملساء، عيناها مُظلمة بشرود وحزن يراهما للمرة الأولى يتساقان من عينيها إلى صفحة وجهها بتجهم أوجع قلبه.

وجد نفسه يتساق إليها ويقف بجوارها مُعلقًا الثوبين كما كان ثم جعلها تظن بأنه ربما وجد اثمانهما باهظة فعدل عن شرائهما ولكنها فوجئت به يجذبها برفق حيث الركن الوردي ويقف قبالتها وهو يلمس ذقنها بخفة ويداخل عينيه لرائسم ابتسامة حنونة، إنما حزينة شاردة ويقول:

- اختاري الأنسب لهما، اختاري ما سيسعدكن

***

منذ أن سافرت والدته لأداء العمرة وهو يلاحظ انطوائها عنه وشرودها يسيطر عليها يومًا بعد يوم، لا يعلم سببًا مقنعًا لتلك الحالة

التي وصلت إليها، في كل صباح عندما يستيقظ للخروج إلى عمله يجدها تنظر إليه برجاء، تمسك به عند الباب بقوة رافضة خروجه وهي تحتضنه هامسة بخوف:

- لا تتركني وحدي

حتى ملابسها لم تعد تهتم بهندمتها كالسابق، بل وتفعل الشيء أكثر من مرة بتوتر شديد وحرص لتتأكد بأنها قامت به على أكمل وجه حتى أرهقت تمامًا في أعمال المنزل، بين كل يوم وآخر تخترع حجة لتبقي جنى ولجين معها بالمنزل حتى تكاد أن تمنعهما عن دار الروضة تمامًا، تصحو في منتصف الليل متعرقة ترتعش كالمحتضر صارخة برجاء:

- لم أفعل، لم أفعل

الليلة الماضية لم تتغير كثيرًا، بل زادت حالتها سوءًا، عندما استيقظ مرتعبًا وقد أيقظه صوت بكائها، ضمها إليه وهو يُمسد شعرها ويقرأ آية الكرسي بجوار أذنها، صرخت مرة أخرى وهي تلتفت للخلف وتُشير إلى حافة الفراش هاتفة:

- الفراش يهبط بجواري، هناك من جلس بجانبي

ظل يُطمئنها بأن لا أحد معهما وبأنها تحتاج إلى الإسترخاء كما يفعل كل مرة ويقوم بتشغيل سورة البقرة بجوارهما عن طريق هاتفه النقال، ليلة الأمس أشعلت توتره وقلقه عليها، في طريقه إلى الخروج وتركها وحيدة

وقد أتت عاملة الدار لتصطحب بناته معها، لا يريد أن يفعل ولكنه مضطر .

قفز اسم عبير إلى رأسه دفعة واحدة فابتعد عن عتمتها قليلًا وهو يقول مقترحًا:

- ما رأيك بأن تذهبي إلى الدكتورة عبير ساعة أو ساعتين، أمي كانت تقول أنها تعمل صباحًا في المركز الطبي وأعتقد أنها ستكون متواجدة الآن، هي تحبك كما سمعت وستفرح بزيارتك بالتأكيد

ظهر عليها الوجوم يشوبه بعض التململ المزعج للحظات، هناك شيء ما يشغلها تريد التحدث عنه، يظهر ذلك جليًا في عينيها التي تحب النظر إلى عمقها، وأخيرًا حسمت أمرها وهي تقول بتفكير

- زوجة صديقك عادل تريد زيارتي هنا في المنزل، وقد اقترحت أن يكون صباحًا وأنتما في العمل وتنتظر مني موعدًا، سأهاتفها بعد خروجك وأدعوها، أو .. أو ربما أذهب أنا إليها .

تلكأت يده على مقبض الباب وهو يشعر بترددها ويسمعه في نبرتها المرتعشة بل ويراه يعتلي كل خلجة في ملامحها التي تصير شاحبة كل يوم أكثر من سابقه، لا يريدها الإختلاط « رؤى، إنه حتى الآن لا يعلم ماذا قالت لها في الزيارة السابقة، نعم تكلم مع والدته قبل سفرها وعادت إليه في اليوم التالي تُطمئنه بأنها لم تتحدث معها سوى بالخير، ولكنه لا يطمئن لها ولا يعلم لماذا!، رآها تنتظر قراره بترقب وعينيها تحوم حولها

بقلق، ربما هو مُخطىء بشأن رؤى، ربما تصيران صديقتين وتستطيع أن تخرجها من حالتها تلك، حسم أمره في النهاية بعد أن تنهد تحرجه انفعالات مشتتة تملأ صدره وتوجعه بل وتُرهبه في نفس الوقت وقال بصوت:

- لا مانع لدي، افعلي ما يسعدك، ولكن انتبهي على نفسك جيدًا و لاتنسي موعد عودة البنات من الروضة

مضى وأغلق الباب خلفه وهو يؤنب نفسه على موافقته تلك، لقد تسرع، ولكن، ربما لن تذهب أو حتى تجعلها تأتي هي إليها، ربما تغير رأيها كما فعلت الأسبوع الماضي عندما قالت بأنها ستزور عمها وزوجته وعند عودته علم بأنها غيرت رأيها ولم تخرج، أو ربما ستسمع بنصيحته وتلتجيء إلى الدكتورة عبير ربما تجد لديها حلاً لأحلامها المفزعة تلك، اغلق عينيه وهو يُشير بيده لسيارة الأجرة وبداخله يدعو ان لا تُجيب رؤى على اتصال جدايل فلا تحدث تلك المقابلة من الأصل، نعم وهذا احتمال وارد، فهو يعلم من عادل أن رؤى مزاجية الطباع وكثيرًا ما تقرر الخروج فجأة، تُرى إلى أين تذهب؟!.

***

هل يصلُح فعل الصواب ليكون حلاً؟!، أو بمعنى أصح، هل يصلُح بأن يكون حلاً كافيًا؟!، كانت تعلم أن من الصواب عدم عودتها إلى

ذلك المنزل الذى هجرته منذ شهور قليلة وتزوجت، ولم ترجع!، ولن تعود؟

ثم إن عودها أو حتى زيارتها غير مسموحة، لم تعد شقة عائلتها ولم يملكها أحد من بعد ما تركتها، سمعة الشقة كانت كافية ليزهد بها الجميع ويخشى الولوج إليها أو حتى الإقتراب من بابها، حتى أن الجارات يرمين أمام عتبتها الفلفل الأسود والحار حتى لا تخرج منها الأرواح وتؤذيهم كما يعتقدن.

ومن قد يفكر في شقة قُتل صاحبها بأسياخ احترقت حنجرته واحترقت زوجته بغرفة مكتبه حتى تفحمت، وابنتها واقفة تنظر إليها!، حاولت كثيراً طمر الذكريات إلا أنها تتناثر وتتناثر بفوضوية فوق إدراكها وحاضرها، حتى غيّرته فلم تعد تفصل بينهما، وبرغم كل ذلك أخذها قدماها إلى هناك، تشعر بالحنين، تشعر بالإشتياق لمكان لعبها وهي صغيرة، وكيف تمنع الحنين عن أماكن جمعت بين الضحك والألم بأنفسنا، مهما دأبت على تعذيبنا، إلا أنها تظل تحمل بقايانا، ننجذب نحوها وقد آلمتنا الوحدة أكثر مما كنا نعيش فيها، هي ليست مجرد أماكن، إنها زوايا خلدنا رغمًا عن كل الدموع التي ذرفناها فيها.

لم يلاحظها أحد، ربما شكلها قد تغير قليلاً أو ربما الناس منشغلون أكثر مما يجب، تلك الساعة الهادئة بالحي وقد ذهب الرجال إلى أعمالهم بينما النساء بين تنظيفٍ وتسوق، لازالت تحمل مفتاح الشقة في سلسال

مفاتيحها الخاصة، كاللص دخلت من باب البناية تلفت حولها بحرص وهي تخطو نحو الشقة بجوار سلم البناية الكبير المؤدي للطوابق العالية والذي يلقي بظله دونًا على عتبة الشقة فيجعلها مظلمة برغم النهار الساطع، تركت أجزاء الأوراق المربعة الشكل والمختلفة منها والقفل الأسود كما هم في مكانهم وقد ألقتها إحداهن على العتبة ولم تحاول لإزالتهم، فتحت الباب سريعًا وتخطت كل شيء وكأنها تقفز ودخلت مغلقة الباب خلفها بخفوت.

ظلام، لاشيء غيره اصطدمت به عينيها، وفي لحظة أدركت بأنها كانت رعونة منها أن جاءت، ما تلك الجسارة الغبية التي تدفعها للوقوف على أعتاب الجنون بلا سبب حقيقي، أتحارب في معركة تريد أن تخسرها؟!!

الستائر مُسدلة بخشوع على النوافذ المُغلقة، يتسلل من بين فتحاتها الصغيرة شعاع ضوء يخشى الولوج بكامله ولكنه يسمح لها برؤية باهتة غير واضحة، رائحة الدُخان مازالت تُعبق الجدران التي كانت أشبه بظلال شاحبة أمامها، دون إدراك وجدت قدميها تتحركان وكأنها تُنظف حذائها قبل الدخول، الدخول؟! وكان الأثاث المُغطى أمامها بأقمشة كانت بيضاء يتحداها بسخرية أن تفعل، تلفتت حولها وخافقها ينضح بلوعة الخوف، حتى يكاد يقفز من صدرها إلى مكانٍ آخر أكثر أمانًا، وعيناها تفيض بالدمع الغزير بلا توقف، بدأت العبارات تتضح بعقلها

تكاد تصم أذنيها، بل وتصفع انسانيتها بقوة تجعلها تتحرك خطوة حانيًا وكأنها ضربتها

" لا زلت تخططين لخلع السواد أيتها القبيحة " ، لتستقبلها عبارة أخرى صافعة في الاتجاه المقابل " لا أعلم لماذا لاتموتين ونرتاح من شؤمك " ، رفعت كفيها تضعهما على أذنيها بأنين متواصل لعلّ العبارات النائحة تتوقف، ولكنها لم تفعل " عطرك الرخيص لن يجلب إليك إلا البعوض أمثالك "، زاد ضغطها على أذنيها دون شعور وأنينها يزداد مختلطًا بالدموع، والذكريات تزداد قسوة لتدفعها للدوران حول نفسها بلا وعي لاهثة. وفجأة توقف كل شيء، وكأنها أصيبت بالصمم المفاجيء، عندما مالت عيناها على كيان ما في الممر الضيق المؤدي إلى غرفتها، كيان يتحرك، ويقترب منها، شعرت بقدميها تستحيل الى شيء هُلامي وهي تلتي أسفلها وتسقطها على ركبتيها من شدة الفزع، هربت الدماء من عروقها عندما اقترب ذلك الكيان أكثر وتبينت ملامحه، لا.. ليست ملامحه، بل ما تبقى منها؛ كيانًا محترقًا بالكامل، يتصاعد منه دُخان بلا نار، وبرغم كل ذلك استطاعت أن تتبينه، عرفته، بل عرفتها، عيناها مشوهة كليًا، قسمات وجهها ذائبة في بعضها البعض، إلا أنها استطاعت أن تفهم تلك السخرية الناضحة فيه، وقبل أن يغيب وعيها سمعتها تقول:

- كنتُ اعرف انك ستأتين، انتِ كالفار لابد وان يعود إلى جحره مهما كان ثمنًا !

دوامة ترميها فتتلقفها دوامة أخرى تُعيدها لمنتصف الدائرة من جديد، دائرة بمنتصف البحر تبتلع كل ما يقترب منها، كلما ظنت انها تخرج تجد نفسها في وسطها مجددًا، ظلت تحارب بذراعيها ولكن بقية جسدها ثقيل للغاية، يكاد يكون مشلولاً عن الحركة، كانت تعلم بأنها تحلم، وتريد اليقظة ولكن لامفر، لابد من الغرق أولاً لتستيقظ، توقفت عن المحاربة واستكانت، تموت بإرادتها، وأخيرًا امتدت إليها يدين لتنقذها، استسلمت لها وتركتها ترفعها عاليًا وتقذفها بقوة للخارج، وسقطت، هل هذه هي النجاة ؟!، السقوط لتتحطم!

شهقت عاليًا وهي تستيقظ في سريرها وصدرها يؤلمها للغاية، نعم هو حُلم كما كانت متيقنة، إلا إنه ليس تمامًا، جزء البحر فقط هو الحُلم، أما ما سبقه، كان حقيقيًا!، عرفت ذلك عندما اصطدمت عيناها بسقف الغرفة فعرفته على التو، إنها في غرفتها، وفوق سريرها، ولكن ليس في شقة زوجها، لقد كانت في شقة عائلتها كما كانت قبل أن تفارق الوعي، جلست مذعورة شاخصة البصر وهي تحتضن جسدها بذراعيها في محاولة يائسة للاحتماء:

- وأخيرًا التقينا يا صديقة !

صرخة احتبست بحلقها وهى تلتفت نحو مصدر الصوت، ورأتها،
تطوف بخيلاء أمامها كأن مساحة الغرفة الشاغرة المتبقية قد تحولت
مستحيلة إلى معراج خاص لها، ذات ملابس فضية لامعة حواليها
فضفاضة تطوف معها كأنها ترفرف، همسة منفلتة غير مصدقة تحركت في
شفتاها دون صوت، خرجت الحروف مجنونة بجنون اللحظة هاتفة :

– هالة !

***

لا تعلم ما مر من وقت وهى تحدق بـ هالة المبتسمة لها بجمال،
انعدم الزمن وتوقفت ساعات الكون، شعرت بأن الطيور هى الأخرى
توقفت فجأة عن الطيران، وسكنت حركة الحياة، وكأن عمرها يتوقف
على تلك النظرات المرتعبة التى تحولت إلى ذهول ربما يقتلع مقلتيها من
شدته، قبل أن يعود الدم لضخه بأوردتها من جديد وتصرخ رئتيها طالبة
للهواء ومازالت شفتيها التى أصبحت قاحلة من شدة شحوبها تتمتم بلا
توقف:

– هالة، أنا أحلم، لا، هذا كابوس أريد أن أستيقظ، أنا لستُ هنا،
كل هذا غير حقيقي!

تركتها هالة تهذي للحظات وهى تهبط ثم تستقر أمامها واقفة بثقة،
ذراع منسابة بجانبها والأخرى موضوعة فوق خصرها برشاقة، ذهب

الشحوب وبات المرض، نفس ملامحها التي تعرفها إلا أنها ساخطة وكأن أشعة الشروق البرتقالية هجرت سماء الكون لتشرق بوجهها حصريًا !

- هلاّ قدِمتِ قليلاً لنتحدث؟

صرخات هلع انطلقت ترج أركان الشقة بالكامل آتية من خارج الغرفة جعلت أحبال صوت رؤى تعود للعمل ثلثاتٍ، وهي ترددها بصراخ هائل وترفع كفيها لأذنيها بحدة؛ وتضغط مقلتيها تغلقها بقوة الخوف، تعرف صوت من تصرخ بالخارج، تحفظه عن ظهر قلب، ومن بين الصراخ والألم شعرت بسمة منعشة تلفها، تحمل عبير المسك وصوت هالة العذب كقيثارة ينساب إلى قلبها من خلال أذنيها برفق وهدوء:

- لا تخافي، أنا أحميك منها منذ وقت طويل، عندما رأتك اليوم تمزَّ جنونها وكانت ستؤذيك، ولكني قمت بحبسها بالغرفة التي احترقت بها وهي لن تستطيع الخروج منها الآن، لا تخافي صراخها، إنها تُفزعك فقط لتنتقم منك !

كيف تخرج من كل هذا الجنون؟!، هل تُساير الحلم حتى ينتهي وتستيقظ أم ماذا تفعل؟!، جميعهم أموات، فكيف تتحدث إلى واحدة بينما الأخرى تصرخ بالخارج؟!، سكت الصراخ فجأة لتشقق جدران البيت من صياحها الذي يدوي كصوت يتردد بين الجبال "أحرقتني يا دميمة، قتلتني"

هذه المرة شعرت بنسمات باردة تدور من حولها حتى عزلتها الرياح الخفيفة عن العالم فلم تعد تستمع إلى الصراخ الآتي من خارج الغرفة، وبرودة عذبة تحط كالفراشة على كتفيها لترفعها بنعومة من فوق أذنيها، فتحت عينيها ببطء مهيب، لترى هالة تسحب أصابعها بين أناملها برقة وتنظر إلى عينيها مباشرة وتقول بترنم:

– اطمئني، أنا صديقتك، أحميك بروحي

قالت هالة كلمتها الأخيرة ثم ضحكت بمرح وهي تتابع حديثها نائرة خصلات شعرها يمنة ويسرة فتتساقط منها حبات اللؤلؤ:

– فعليًا لا أملك غيرها في الوقت الحالي !

أسرت حبات اللؤلؤ المتطايرة عيني رؤى رغمًا عنها بمنظرها البديع، مما جعلها تتناسى للحظة بأنها تتحدث إلى ميتة بالفعل وتمتمت مأخوذة:

– أنا أستحق انتقامها، لقد احرقتها !

ابتسمت هالة لعينيها فأضاءت شمسٌ أخرى من بين فكيها ورفعت كتفيها قليلاً وكأن الأمر يبدو معقولاً وهي تقول:

– هي من كانت ترغب باللحاق بأبيك، أنتِ أسديتِ لها معروفًا تستحقي عليه الشكر، لا الإنتقام

حاولت رؤى أن تحيد بعينيها ولو قليلاً عن عيني هالة ولكنها لم تستطع، كانت مأسورة كلتيا بداخلهما، حتى أن كلمات هالة بدت لها منطقية جداً، فحركت رأسها موافقة ثم تساءلت بانبهار:

- وكيف تستطيعين حمايتي منها ؟

تحركت هالة لتعود إلى حالة الطواف من جديد، كملكة ترعى حماها، تتفقد الرعية، تُحيس بجيوش غير مرئية، اقتربت من رؤى من خلفها وهمست بأذنها:

- في عالمكم، الشرير هو المُسيطر والحاكم، أما عالمنا نحن، فقواعده مختلفة تماماً

عادت رؤى تتوتر من جديد وتلفت حولها بضياع وصوتها يرتعش بحروفه:

- أخرجيني إذن من هنا، وأعدك أن لا أعود ثانية

همست هالة بأذنها الأخرى

- لم تسأليني حتى الآن ماذا أريد منك

وهل تريدين شيئاً ؟!، غاصت حواسها ترقباً بين أمواج همستها، ترى ماذا تريد منها؟، ظلل عقلها سحاباً رمادياً يكاد يهطل خطط تفكر بها للخروج مما هي فيه الآن، سواء كان حلماً أو حقيقة، ولكن

همسةً أخرى من هالة صدمتها ورسمت لها حدودًا لواقع يفرض نفسه عليها فرضًا لن تستطع تعديها أو حتى الدوران من حولها:

- أريدُكِ أن تُحييني !

همسة كافية لتجعل وعيها يندفع بها بعيدًا عن حاضرها ولكنها تمسكت به بغضب صائحة بانهيار معترض وقد عادت عيناها تشخص مُجددًا ولكن هذه المرة بدأت تند بدموعٍ وفيرة:

- أنا لستُ إلهًا لأُحييكِ !!

كموجة هادئة تحمل طفلاً أوشك على الغرق إلى أحضان اليابسة الخضراء، واجهت هالة عيني رؤى وقالت بنغمة ساحرة:

- أحييني فوق أوراقك، أحييني بين سطورك، أخبري الناس عني، ربما أنا مت بالفعل ولكن، مازالت الحياة بها هالة أخرى وأخرى تنتظر أن تُحييها بقلمك !

ترقرق الدمع مُجددًا رمادي عينيها الحائرة بسحر الكلمات وهي تتسائل:

- كيف؟!

- أعلمُ بأن الكتابة هي هوايتك، أُكتبي عني، وأنا سأمدك بكل ما تحتاجين من تفاصيل ستجعله يُجنّ، أريده أن يقرأ، أن يشتعل ضميره اشتعالاً

تموجت الحيرة بين طيات وجهها وعلامة استفهام كبيرة ظهرت بعينيها فتابعت هالة مجيبة عن سؤال صامت:

- هشام، وأيًا كانت الطريقة التي ستخبري بها الناس عني، فسوف أضعها أمامه، وبين عينيه، سأرغمه بأن يقرأ

ولماذا تفعل؟! وما شأنها هي!، بقوة حركت رأسها رفضًا والتمرد يزحف رويدًا رويدًا بداخل عينيها، تمرد ظهر بوضوح في تشنج شفتيها وتوتر جسدها، ولكنها كانت مخطئة، على الأقل في تلك اللحظة، لقد عايشت هالة المريضة الشاحبة، وسُحرتْ بهالة الكيان المرمري، أما الآن، فلقد وضعت نفسها وجهًا لوجه أمام هالة القاسية قليلاً!، فقلت هالة المساحة التي كانت تفصل بينهما وسحبت كل تركيزها في عمق لجاج عينيها التي صارت تتوعد بقسوة وهي تقول بنبرة لها حرارة تلسع كعود ثقاب انطفىء وهجه للتو ورحل معه أريج حضورها:

- ستفعلين، وإلا !

***

انحنى نحوها وهي تضع الطفل أمامها على مقعده المُخصص له وتُطعمه وتناغيه، قبل أعلى رأسها وهو يقول مداعبًا:

- وأنا أين عشائي يا زيتونة !

رفعت وجهها إليه وهي تُضيق عينيها باستهجان مرح هاتفة:

- اعتقني لوجه الله، كف عن مناداتي بهذا الاسم

عاد رأسه إلى الوراء ضاحكًا بينما هي تحمل مقعد الطفل من فوق الطاولة وتضعه على الأرض خشية سقوطه ونهضت تواجه ضحكاته التى يستفزها بها دومًا، دفعته من كتفه بغيظ صائحة:

- توقف عن إغاظتي يا عادل، أنا لستُ بزيتونة !

حاول التماسك بأن يوقف ضحكاته ويُهدىء صخبها قليلاً وهو يضع كفيه فوق صدره إشارة لطلب صفحها، وضعت يديها بخصرها بتأفف متبرمة حتى سكت تمامًا ثم أدارها إليه وأمسك وجهها بين كفيه فى طريقه إلى الإعتذار، رفع حاجبيه وهو يقول بجدية أغاظتها أكثر:

- آسف حبيبتي، أنتِ لستِ زيتونة، بل أنتِ طبق من القشدة

ابتسمت رغمًا عنها رافعة حاجب واحد بثقة ولكنها لم تتنازل عن التبرم العالق بشفتيها فكانت النتيجة النهائية شفاه معقوفة للأسفل قليلاً، ولكن عادل دمر أسفه مردفًا:

- طبق من القشدة سقطت فيه زيتونتان وشريحتين مكتنزتين من الطماطم الطازجة

غطت وجهها بكفيها وهى تحركه بيأس منه، هذا هو عادل، حبه مشاكسه، شغفه إغاظه، ولكن عندما يلحظ حزنًا ما بعينيها يتحول إلى عاشق متفهم لا يشق له غبار، إلا أنه يجدها فى هذه اللحظة فى مزاج

جيد للمزاح بالإضافة إلى أنه جائع، فلمَ لا؟!، أمسك بكفيها ليحرر وجهها وقبلهما مُدعيًا الإعتذار، وقبل أن يتابع بمشاغبة أخرى سقطت نظراته على المقعد الوثير خلفها، منذ أسبوع تقريبًا وهناك كتابًا للحكايات لا يُفارق يديها، تصحبه معها أينما جلست. فقال بعد أن مط شفتيه ورفع حاجبيه متسائلًا:

- يا ترى ما السبب المفاجيء لشغفك بالكتب هذه الأيام؟!

ارتبكت قليلًا وكأنها لم تتوقع أن يُلاحظ وتنحنحت باحثة عن إجابة منطقية لثوانٍ قبل أن تجيبه بعينين زائغتين:

- وهل لديك مانع؟

تنفس بعمق ثم قبل جبينها بعينين شاردتين، يشعر بأن دواخلها غير سعيدة بغيابه طوال اليوم فى عمله، تشعر بالملل لذلك مزاجها متقلب بين يوم وآخر، لا يستطيع أن ينسى مظهرها وشكلها منذ أيام حين دخل المنزل فوجدها شاحبة تبكي بهستريا، تشبثت به حين رأته، كانت والدته قد هاتفته وأخبرته بأن رؤى مرت بها وتركت الطفل لديها متعللة بالتسوق ولم تعد إلا بعد غروب الشمس بهيئة تشبه شخص دُفن بالخطأ وهو على قيد الحياة، وعندما استيقظ وجد نفسه محاصر بين جثث الموتى، ظن أن والدته تبالغ ولكن عندما دخل شقته ورآها هكذا، توقع أن الأمر جلل بحق، ليلتها أخبرته بأنها فقدت وعيها فى المتجر الكبير ولم تكن تحمل هويتها فلم يتعرف الناس عليها ولم يأخذوها إلى أي مشفى

وظلوا يحاولون إفاقتها لوقت طويل، وعندما استفاقت بقيت مع عاملة المتجر بقية اليوم حتى استطاعت التوازن من جديد ثم عادت لتأخذ الطفل من والدته لذلك كانت حالتها مزرية !.

بداخله شيئٌ ما يجاهد لتصديق قصتها تلك وبالأخص لأنها حامل فى الشهر الأول من حملها ففقدانها توازنها أمر منطقي، ولكنه لم يكن مستريحًا أبدًا ولا يعلم لماذا!، وفى اليوم التالي وجدها تعبث بمكتبته الكبيرة وتصنع لنفسها ركنًا خاصًا بكتبها ودفاترها، كانت فى نظره خطوة جيدة لملىء وقت فراغها بشيءٍ مفيد كالقراءة، ولكن هذا لايكفي، لابد وأن تتواصل مع صديقة أو أكثر لتُكسر شرنقتها هذه، ومن يستحق الصداقة والتواصل سوى شخص تتشابك طرُقنا بطرقه بشكل أو بآخر، ومن غير زوجة هشام تعاني من نفس الوحدة التى تعاني منها رؤى، لا بل أكثر، ما قصه هشام عليه اليوم عن زوجته فطر قلبه على صديقه، أغمض عينيه وضم رؤى إلى صدره وكلمات هشام الحائرة تضرب ذاكرته من جديد:

- أسبوعٌ كامل تتحاشاني يا عادل، تقول بأن لمساتي العابرة لها تلسع جلدها بل تنغزها كالأشواك، أسمع صوت أنينها وهى نائمة وكأنها تعاني وتحارب ثم تستيقظ صارخة، سأجن يا عادل .

خرج من بئر ذكرياته رغمًا عنه عندما شعر برؤى تُربت على خده بخطوة هاتفة:

تستطع أن تواجه عينيه المتسائلة بدهشة فأشاحت بوجهها بعيدًا وهربت من بين ذراعيه نحو المطبخ بخطوات عصبية وهى تتمتم بضيق:

- سأعد لك العشاء!

تصلب جسده مكانه وهو يرقب حركتها النزقة المرتبكة وصوت بكاء ضعيف لطفله قد بدأ يعلو بجانبه، انحنى يحمل الطفل وعيناه لا تفارق الباب الذى اختفت خلفه منذ لحظات، جبينه منعقد وقد بدأت أفكار غريبة تغزو عقله عن تلك المشاعر التي لم يشعر بها يومًا فى قلب زوجته تجاه هشام، ترى هل مازالت تحمل فى نفسها ذكرى رفضه لها فى السابق؟، لقد نسى هو شخصيًا هذا الأمر، حتى أنه لم يناقشه معها أبدًا، وعندما سألته فى بداية تعارفهما من الذى دله عليها ولماذا اختارها هى بالذات؟، اضطر أن يخترع لها قصة وهمية حتى لا يجرح مشاعرها أكثر وقد أعجبته للغاية، فلماذا تطفوا تلك المشاعر السلبية الآن؟!

***

وقالت لي

تفحص الكاتب الصحفي عبدالخالق مروان المظروف بين يديه مندهشًا، ثم بدأ في فتحه وفض الأوراق منه وقراءة ما بين سطورها بفضول، حينها علم بأنه أمام حالة فريدة من نوعها تحتاج إلى تأمل عميق وصبر طويل لفك أحجيتها وألغازها قبل الحكم عليها، وقد تيقن من ذلك عندما وصلت عيناه لآخر سطور مقدمة الأوراق وقد كتبت له الراسلة فيها :

- "وسأظل أرسل لك تفاصيل زياراتها لي في شقتي المهجورة، وفي كل ظرف سأرسله لك ستجد عليه عنوانًا يتوسطه من الخارج وهو نفس العنوان الذى كتبته على الظرف الذى بين يديك الآن " وقالت لي ".

لا أريد منك تصديقي، أريد فقط أن تنشر شكواها، لعل روحها تهدأ قليلاً وينقطع شبحها عن زيارتي !.

لأول مرة يقف أمام رسالة كهذه، لقد اعتاد قراءة حكايات من سراديب الحياة المظلمة، بكل زواياها المهجورة، إلا أنها كانت جميعًا في النهاية شكايا وتجارب أحياء!، لم يتخيل أن يأتي يومًا يفرد مساحة في

بابه، لميتا)، بالتأكيد سيتهمه الجميع بالجنون، أو على أقل تقدير بصناعة ضجة إعلامية وهمية لبابه الأسبوعي تنعكس على مبيعات المجلة التي يُشرف على أشهر باب بها " بين الناس" !.

سقط الظرف من بين يديه وهو يرفع وجهه القمحي البشرة بإجهاد مشوب بالحيرة ويستند بظهره للخلف مُلقيًا بثقل جسده على ظهر المقعد الضخم خلف المكتب الخشبي الكبير والمُمتلىء سطحه بالأوراق والخطابات عن آخره والمُستدير نصف استدارة من حوله، يواجهه مقعدان مُتقابلان من الجلد البُني الفاتح وبينهما طاولة زجاجية مستديرة صغيرة، دار بالمقعد دورة كاملة فمرت عيناه على الجدران المطلية بالأزرق المتداخل مع الأبيض بانسجام يساعده على التركيز، دائمًا ما يرفض تعليق اللوحات على الحوائط، يُفضلها هكذا خالية من أي إطار سوى من مكتبة مستطيلة في زاوية منها ضمت بعض الكتب المتنوعة التي يفضل قراءتها بين حين وآخر أثناء عمله، خلف مقعده نافذة موصودة في الجدار مُطعمة بزجاج سميك يفصله عن العالم الخارجي، نصف دورة إضافية لتكمل عيناه رحلتها إلى اليسار فانعكست صورته على المرآة الطويلة الملتصقة بالجدار، أصبحت الآن أمامه مباشرة، توقف المقعد عن الحركة، لقد نال الإجهاد من روحه قبل جسده وعقله، انسحبت نظراته نحو خصلاته البيضاء على جانبي رأسه فمرر كفيه فوقهما وهو يشرد كليًا فيما قرأ منذ دقائق، تلك الرسالة التي سجنته بين سطورها من بين مائة وخمسين رسالة أخرى!، وأبت أن تحرره منها

مع ذلك، فثقافته الواسعة وطريقة تفكيره الواعية وقدراته العقلية
ولكن حبه الأول والحقيقي والوحيد مازالت الصحيفة والعودة ولدة
تنشر مقالاته، حتى وإن نوه في بدايتها عن رفض عقله لها، ترى لها
دوياً وصدى أكثر من مجرد مسألة، فلربما تكون سبباً في اقتناع
البعض عن غيره أسلحتهم قبل فوات الأوان، ففي النهاية هي تجربة
مليئة وأخيراً وبعد معركة داخلية طاحنة كان قد أمسك بالقلم بعد أن
حسم قراره وبدأ يكتب بسهولة.

- يقول أحد علماء النفس أن الصمت هو أحد مراحل الانفعال،
وأنا أكثر اللحظات التي لا أجد فيها ما نقوله من كلمات هي
اللحظات التي يصل انفعالنا فيها إلى الذروة فنصمت!، هذا ما
حدث لي تحولي القراء وأنا أمر بين سطور هذه الرسالة والتي من
الواضح حسب حديث كاتبها أنها ستكون سلسلة من الرسائل.
لن أطيل عليكم فأنا أعلم أن تلك المقدمة قد بلغت من فضولكم
المنتهى. سأضع الرسالة كما هي، كما تمت ولكن، فقط
سأحذف منها ما يمس أخلاقياتنا وديننا الحنيف من وجهة نظري
ولكني لن أمحو ما هو متناقض مع عقلي وثقافتي، وسأترك لكم
حكمكم في النهاية منتظراً تفاعلكم معها كما اعتدت منكم،
المشاركة الوجدانية التي أصبحت علامة مميزة لصفحتنا هذه عن
طريق بريد المجلة الإلكتروني.

للمرة الأولى لن أعنون الرسالة بما يليق بها فلقد أصرت صاحبتها أن يكون عنوانها " وقالت لي "، والآن سأترك لكم الإبحار في لُجاجها كما حدث لي قبلكم .

وقالت لي !، من بريد " بين الناس "

أقرأ بابك دائمًا وأراسلك وأعلم بأنه لا معنى لذكر مكان تواجدي الآن، ولكنها حالة مختلفة واختلافها باختلاف أبطالها ومكان كتابتها، أما عن المكان فأنا بين جدران غرفة موصودة في شقة مهجورة، ينتظرني خارجها كابوس أسود لينتقم مني شر انتقام على الفرصة التي منحتها له، وأما عن أبطال القصة فتجلس أمامي الآن بطلتها الرئيسية والتي توفاها الله منذ شهور !.

مزق الآن خطابي أو احرقه، إلعنِّي كما تشاء، ولكن لا تُكذِّبني، هي الآن معي وجها لوجه ولا أعرف كيف، تعجب واندهش كما تشاء، ولكن صدقني، الكاذب دومًا تكون له مصلحة من وراء كذبته، أما أنا فلا أريد سوى الخروج من هنا فقط!، فهي وبرغم طيبتها إلا أنها حين تغضب تكون مختلفة، هددتني إن لم تصل قصتها إلى الناس فستستحيل حياتي إلى جحيم دُنيوي، وكل ذنبي أنني كنت صديقة عابرة في أواخر حياتها القصيرة .

ولسبب آخر اعتقد بأنه وجيه جدًا، إنها تُريد أن تُملي علي بعض الأحداث التي لا يعلم عنها أحد شيئًا سواها هي وزوجها السابق فقط،

لي) فأنا الآن في حضرتها وبين يديها وأمام عينيها المجسمة بالشقاء والانكسار لم أرَ مثله من قبل، سأرمز لاسمها بحرف " هاء "، لن أبذل جهدًا أكبر في ترميز اسم زوجها لأنه هو أيضًا يبدأ بنفس الحرف لذلك سأستعمل آخر حروفه وهي " ميم "، حتى يتيسر لي الحديث عنهما كما أردت، أما زوجته الثانية التي تزوجها بعد وفاة " هاء " فسأرمز لها بحرف " جيم "، والآن إليك قصتها.

***

كالعادة استيقظت صارخة، وكالعادة انتفض من نومه فزعًا يتلفت حوله حتى يستطيع تمييز أنه في غرفة نومه وعلى فراشه وجدايل تتشبث به، زفر بقوة وهو يربت على ظهرها مُمسدًا لشعرها وهو يستغفر وقد بات الأمر غير محتمل، مازالت ترفض أن تقُص عليه كوابيسها وكأنها تخشى البوح، وبروتينية مد يده ملتقطًا هاتفه لتصدح آيات سورة البقرة في المكان، فتهدأ وترتخي عضلاتها المتشنجة ثم تنام على ساعده غارقة في عرق جبينها ومنابت شعرها وهو يمسح عنها العرق بيده الأخرى ورغمًا عنه دواخله ترتجف وكأنه يستشعر رعبها ولكن يخشى الإعتراف، سينتظر حتى تعود والدته لتتصرف، لقد سأم حديث عادل عن ضرورة التقرب إلى الله ليزيح عنهما ماهم فيه، إنه يصلي فروضه وهي كذلك، فماذا يفعلان أكثر من هذا؟!، صحيح أنه يؤخر الفروض وأحيانًا يجمعها عندما يعود للمنزل آخر اليوم، ولكنه يؤديها في النهاية!، لقد

أخذ بنصيحته ويقوم بتشغيل آيات سورة البقرة فى المنزل يوميًا ولم يحدث أي تطور، صحيح أنه لا يستمع إلى آية واحدة منها بتركيز بل ويعود للنوم فى بدايتها، مصحفه يعلوه الغبار عن آخره من هجره لما بين دفتيه ولكن هذه مقدرته، والله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها !.

علت زفراته مجددًا دون إرادة منه وهو يُحاول العودة للنوم من جديد بعد أن أقنع نفسه بتلك الأفكار، ولكن هزيم الريح الشديد فى الخارج يثير خيالاته المتأصلة بعقله منذ الصغر عندما كانت والدته - سامحها الله - تقول له أن هذا صوت العفريت فى الخارج إن لم ينم باكرًا فسوف يدخل إليه!، ورغم اهتزازه الداخلي إلا أنه لم يستطع منع ابتسامة طافت بين شفتيه لبرهة وهو يسخر بداخله من هذه الذكرى:

- ولم أسأل نفسي يومًا عن مصلحة العفريت فى جعلي أنام باكرًا كل ليلة؟!

التفت نحوها فوجد أنفاسها وقد انتظمت وراحت فى سُبات عميق، فسحب ذراعه من أسفل رأسها ببطء، نهض من بين ركام الأغطية الثقيلة على مهل، ومشى على أطراف أصابعه حتى خرج من الغرفة دون أن يُحدث جلبة، توجه إلى الثلاجة مباشرة فتحها والتقط منها ثمرة يوسفي وأخذ يزيل قشرتها الخارجية وهو يتوجه نحو غرفة بناته، فتحها بهدوء وألقى عليهما نظرة اطمئنان، ابتسم لرؤيتهما بتلقائية ولكن ابتسامته تلاشت على الفور عندما سقط شيئ ما فى الشقة الكائنة فى

الطابق العلوي مما جعل صوت الإرتطام يبدو وكأنه في شقته هو، استوعب ذلك مؤخرًا بعد أن بُهتت ملامحه عند سماعه للصوت وقفز قلبه بين قدميه لثوان، مما جعله يحنق على نفسه وعلى استعداده الدائم للذعر هكذا، أغلق الباب عليهما وجر قدميه نحو الردهة، مر بين المقاعد المُريحة حتى التف جالسًا على مقعده المُفضل أمام الطاولة، هوى جسده بحنق وهو يستنشق بقوة ويزفر ببطء ليهدأ، نظر نحو كفه وقد تذكر للتو بأنه مازال مُحتفظًا بالثمرة وقشرتها معًا في يدٍ واحدة، ولكن هيهات لقد ذهبت شهيته أدراج الرياح وانتهى الأمر.

مال للأمام ليضع ما بيده على الطاولة باستياء فلفتت نظره مجلة، عجبًا !، لايذكر أنه اشتراها سابقًا، تناولها يقلبها بين يديه بلا حماس حقيقي، ضيق عينيه حتى تغضنت زواياها عندما وقعت نظراته على أحد أوراق المجلة مطوية من الداخل على شكل سهم غير متساوي بغير عناية، مرر أصابعه بين أطراف الورقة ليعيدها كما كانت وقد أخذه الفضول قليلاً، " وقالت لي " سقطت نظراته على العنوان الأحمر اللون بسخاء، مما جذب انتباهه لأول السطور، وعندها تمتم مندهشًا متسع العينين:

- امرأة ميتة تحكي قصتها، هاء، ميم، جيم !!

ارتحلت عيناه بين كل سطر وآخر، كلما ترك واحد قفز فوق الآخر سريعًا كسرعة أنفاسه وحركة صدره مُحملاً بها، ووجهه يزداد احتقانًا بالدم

والكلمات تخطف الهواء من حوله وتحبسها عن رئتيه :

" لم يكن شغوفًا بي منذ البداية " ، أنا التي صرحت بمشاعري أولا، عبّدتُ له الطريق فصرتُ وكأنني أدفعه دفعًا لمشوار الزواج، عندما رفضته عائلتي في البداية لتفاوت المستويات الإجتماعية بيننا، حرمت نفسي من أن أرى الرجل الذي اخترته ينافح عن حبه، يقاتل لأجلنا، فجنبته كل هذا وجعلته يتنحى جانبًا ووقفت أنا بوجههم حتى رضخوا في النهاية وهم يتعجبون من خلو ساحة المعركة منه!، وبعد الزفاف بأقل من شهر، أنا التي كنت أخترع القصص ليظل مستيقظًا بجواري بعد دخولنا للفراش، ولكن كسر خاطري أصبح عادة لديه، بل زاد الأمر سوءًا مع مرور الوقت وهو يضنّ عليّ بكلمة غزل أو مدح لمظهر قضيت في الإعتناء به وقتا طويلاً لأجله وحده، فقط يبتسم ويقول كلمة واحدة " جميل " ثم يُدير وجهه ليتابع المعروض أمامه على شاشة التلفاز، ماذا أقول، لولا ثقتي بنفسي وبدرجة الجمال التي منحها الله لي لكنت اقتنعت بأنني دميمة

عندما بدأت مشاكلي ومعاركي الداخلية تدب بيني وبين والدته، تركني هو أواجه تدخلها في حياتنا الخاصة وحدي، وغدت محاربة المُبقي من عائلتي لأحصل على نصيبي لميراثي من والدي في شقة العائلة، ولقد كان مبلغًا زهيدًا من المال، قذفوه في وجهي، ونبذوني من يومها، وبذلك المال القليل سعيت لتأجير شقة أخرى لننفصل ولو بعض الشيء عن

والدته ووفرنا بعض الأثاث البسيط وقد كان هذا منتهى أملي من الدنيا، حياة خاصة بعيدًا عن المشاكل، وظل الحال على ماهو عليه من هجر قلبه لي حتى تبيست أوتتي، وأصبحت عدائية معه، تتعارك لأتفه الأسباب.

نعم أعترف، عزوفه عني لأوقات طويلة سبب مباشر في اختلاقي للمشاكل، وقد شعرت بالنبذ، هل تتصور كيف يكون النبذ من أول رجل أحببته بحياتي؟!، لم أحب قبله، ولم أعرف رجلا غيره، فهل يلومني أحد الآن عندما أقول أن الغيرة اشتعلت بقلبي عندما رأيت كيف يتعامل مع زوجته الجديدة " جيم " التى تزوجها بعد وفاتي، هل يستطيع أن يكرهني عندما يعلم بأني السبب المباشر في الجحيم التي تعيشه هي الآن، لقد كنت أتصور أنه سيعاملها كما كان يتعامل معي، ولكنني نظرتُ إليه، فوجدته شغوفًا بها، حريصًا على إرضائها، عيناه تلمع دومًا وهو يتأملها، يبحث عنها، أنامله تجد طريقها سريعًا إلى أناملها، أينما جلست ينتقل فورًا بجوارها، يحتضن خصرها، لا يرضى بطفلة تفصل بينهما في الفراش، بل لا يستطيع النوم إلا وهو يلمسها بشوق جارف كما لم يفعل معي يومًا وأنا حية .

أردتُ أن أسأله هامسة بأذنه، لماذا؟!، ولكنني تراجعتُ في اللحظة الأخيرة، خفت أن يرتعب فيفزع الطفلتين، فهو يخاف إلى درجة مضحكة!، حاولتُ أن أبحث عن الإجابة في عينيه، وفعلا عثرتُ عليها

وهو ينظر لها بريق لم يتوهج يوما لأجلي، فادركتُ الفارق حينها، لقد أحبها، هكذا ببساطة، احبها !.

فانزويت خجلة في أحد الأركان فوق الستائر المُعلقة بعد أن هدمت عش العناكب به، العناكب التي لتشعر بي أكثر منه !".

إلى هذه النقطة توقفت " هاء "عن الحديث سيدي ووجهها مائلٌ للغاية ونظرت نحوي بنزيف من الدمعات اللؤلؤية وقالت لي:

- أتعلمين صديقتي؟، انا لستُ ميتةً فقط، بل فاشلة أيضًا، صحيح؟!

وقبل ان أجيبها سيدي علا الصراخ في الخارج من جديد، وكان دمعاتها اضعفتها للغاية فأصبحت غير قادرة على حمايتي، سبحت الغرفة في ظلام سرمدي، وسمعت صوت والدتي تصرخ بنبرة جحيمية وكأنها امامي وجهًا لوجه:

- تعالي إلى غرفة والدك حالاً يا قاتلتنا، فهو يُريدك بشدة !

نظرتُ إلى " هاء " فوجدتها تئن وتئن والألم يرسم بريشته الحزينة فوق ملامحها، اخذت تضعف وتذبل كالوردة المدهوسة للتو، وكأنها أصبحت بقايا متناثرة، وقتها اتخذت قراري بالخروج من الغرفة، سأذهب إلى أبي بالرغم من علمي بانه سيوبخني لتقاعسي عن حضور جنازته !!.

إنتظر رسالتي القادمة، وللحديث بقية .

وكعادة عبدالخالق مروان لابد وأن يعلق بشيء من النصح والحكمة في نهاية كل رسالة، إلا أن هذه الرسالة بشكل خاص لم يستطع أن يكتب إلا عبارة واحدة فقط تعليقًا عليها :

" النفوس الطاهرة هي التي اخترت الألم ثم اختارت أن تجنب الآخرين مرارته، منتظرة نصيبها العادل من السعادة سواء في الدنيا أو الآخرة "

***

وماذا ينتج عن الصدمة الممزوجة بالخوف والرهبة، والمغلفة بتأنيب قاتل للضمير سوى قدر يغلي بالإنفعالات المضطردة الفائرة فوق وجدانه وعقله، هذا المزيج القابل للاشتعال ينفث في صدره، تسحق المجلة الآن ببطء ودون إرادة بين كفيه بينما عيناه تتسعان عن آخرهما، عالقتان بتيه شديد وذهنه حبيس السطور التي قرأها للتو. إنها كلمات وتعبيرات هالة، هو يعرفها، أحداث خاصة لم يطلع عليها أحد سواهما، نسبة الشك في غير ذلك صفر، إذن هي تراقبه، تحقد عليه، تريد تدميره وزوجته، أعلنت حربها وليس لديها ما تخسره، بعد أن خسرت .. كلها!

نفض رأسه بعنف وهو يتنفس لاهثًا ونقطة ما بزاوية مظلمة بعقله تتهمه بالجنون، وتسأله بتحدٍ، هل ستصدق هذا الهراء حقًا؟!

درجة الغليان وصلت لقمتها عندها تأججت جميع ردود فعله فنهض من مقعده وهو يرفع رأسه للأعلى نحو السقف تحديدًا، ثم تجهد نظراته التي قاربت الجنون نحو الستائر، ثم قمة الستائر كمن يبحث عنها، توقفت عيناه عند هذه النقطة وقد أوشكا حاجباه على الإلتصاق ببعضهما البعض من شدة التضييق بينهما، بينما مقلتيه تهتزان بانفعال سافر، ملامحه النهائية كانت أشبه بمجرم مُقدم على ارتكاب جريمة ما، رفع المجلة للأعلى وهو يهتف ضاغطًا أسنانه بقوة رغمًا عنه:

- نعم، نعم يا هالة أحببتها، أحببتها أكثر مما فعلت معك

أنزل يديه للأسفل ثم فتحهما عن مصرعهما كمن يستعد لتلقي طعنة قادمة نحوه وهو يُعيد هتافه وقد خرج عن السيطرة وأخذ جسده يدور حول نفسه في المكان ذاته:

- ماذا ستفعلين بنا، هيا أريني جحيمك

لم يصل هتافه إلى أحد، بل وكأنه تم عزله تمامًا عن العالم، خرج من دائرة وجوده، شعر بأن سور قد ضُرِب حوله، ظُلمة ما فُرِضت عليه، ظُلمة وظُلم كـ يوسف آخر أُلقي به في بئرٍ بيد أخوته، وتسلق الهم أشجاره الهزيلة، إنهار على ركبتيه ومازالت المجلة جزء من كفه وعينيه قد احتقنتا بالدم وهو يرزح تحت ثقل ندم وذنب يسويانه بالأرض، وصار يهمس بخفوت وقد تعب .. تعب حقًا ويريد أن يستريح:

ـ كنت قوية، اقوى من ان تُشعريني بحاجتك لي، اقوى من ان تحكي معاناتك أمامي، وأنا كنت أغبى من ان افهم كربتك، فهمت مؤخرًا، عندما قرأت وصيتك لي، فهمت بأن ابتسامة السخرية التي كانت عالقة دائمًا فوق شفتيك كانت تُخفي مرارة وضعفًا اكبر مما يجب أن تتحمليه وحدك. أماهي، جدايل، جمعت ضعفها بين كفيها وقدمته لي ببساطة هامسة " أحتاجك ". ضربتني همستها في قلب رجولتي، جعلتني أستهض معانٍ كثيرة بداخلي جعلتني أحوم حولها أنافح عنها ضد كل شيء، وأي شيء يجرحها. هنا فقط اكتشفت نفسي، وفهمت معنى الكلمات التي كنت ترددينها يومًا ما عندما كنت تقولين " لن أستطيع ان أفهمك، أنت ستفهم وحدك، ولكن مع امرأة أخرى غيري" . والآن وقد فهمت، فماذا تريدين يا هالة، ماذا تريدين؟!.

***

- لماذا لم تُخبرني كل هذه المدة يا هشام؟!

دفن رأسه بين يديه وهو يرتكز على فخذيه مُجيبها بخفوت:

- كل هذا حدث وأنتِ تؤدين مناسك العمرة يا أمي

ربتت على قدمه وهي تتساءل بحنان:

- وكيف حال زوجتك الآن؟

زفر حانقًا دون أن يرفع رأسه قائلاً:

- كما هي، كوابيس مفزعة ليلاً، والزواة بعيدًا عني وشرود في ملكوتها الخاص نهارًا، تعيش عذابًا مستمرًا

استندت بكفيها إلى عكازها بتفكير عميق للحظات قبل أن ترفع حاجبيها بتحفز وهي تغمغم وتومىء برأسها بثقة:

- لا تحمل هم يا بني، أنا كفيلة به

لم يشأ أن يطلعها على أمر المجلة والرسالة التي كُتبت بها، بالرغم من خفقه الشديد الذي تملك منه بمجرد أن أخبرته جدايل في الصباح أن رؤى كانت تزورها في اليوم السابق، وهكذا استطاع الربط بين وجود المجلة في البيت وزيارة رؤى الغريبة، كان يريد فضح أمرها عند والدته مؤكدًا لها سوء اختيارها السابق لها كزوجة له، ولكنه لم يفعل، لم يقل شيئًا، خاف أن تطلب منه قراءتها أو تقع بالكلام أمام جدايل وتذكرها، فلقد تأكد لديه بأن جدايل لم تفتحها من الأساس بل وتفاجأت بوجودها، إلا أن هناك سببًا آخر أقوى منعه في اللحظة الأخيرة، مازال يريد الإحتفاظ بماء وجهه أمامها، فوالدته حتى هذه اللحظة لا تعلم كيف ظهر فجأة المال الذي سهل لهم عملية الإنتقال إلى شقة أخرى، أقصى ماقالته هالة لها وقتها أن هشام طلب سلفة من عمله، ترقرق الدمع في عينيه وهو يتذكر كيف وقفت والدته توبخها ظنًا منها أن هالة هي التي ضغطت عليه ليطلب تلك السلفة المزعومة، وعندما تحرك

يوقف والدته نظرت له حالة نظرة معناها أن " لا حنو، اتركها "، فتوقف على الفور وكأنه كان ينتظر تلك النظرة، وكأنها لاتمان أمامه في تلك اللحظة بنسه، أراد أن يحتفظ بكرامته أمام والدته ولو حتى على حساب كرامتها !

أخرجه من شروده رنين جرس باب الشقة فنهض بتثاقل ليجيب نداء من خلفه، بمجرد أن فتح الباب انهال عليه سيل من الدعوات قد كان يتوقعها في هذا اليوم بالذات، فهذا هو موعدها الأسبوعي!

ابتسم لها ابتسامة مصطنعة ثم التفت إلى والدته مناديًا

- إنها عنبر يا أمي

عاد يبتسم مرة أخرى ولكن هذه المرة ابتسامة حقيقية وهو يقارن اسمها بجسدها الضخمة البدينة، وهي تتباهى بنسبتها هذه أمام الجميع وخصيصًا بأنها تقترن بصحة وقوة، تلك الصحة التي تأكل عيش من ورائها كما تقول، فهي المتخصصة الوحيدة في المنطقة والمسئولة عن تنظيف ومسح سلالم العمارات وشققها أيضًا لو تطلب الأمر، وهي التي فتحت شقة هشام ونظفتها قبل عرسه، ولم تنس وقتها أن تلقي النصائح على مسامع والدة هشام بأن الشقة مغلقة منذ شهور وربما تكون مسكونة الآن، فلماذا لا يلجاون إلى شيخ واصل ليحصنها، كالشيخ عبد الفتاح، فاتح الأبواب الموصودة وقاهر الجن والأشباح !.

في ذلك الوقت لم تلتفت والدة هشام كثيرًا لزلزلها ولكن الآن هي تحتاجها بشدة، فنهضت من مقعدها وتوجهت نحو الباب بظهر منحني قليلاً هاتفة:

- انتظري يا عنبر أريدك في أمر هام

وقف هشام مكانه عند الباب منتظرًا أن يبدأ في رحلة حمل الماء اللازم إليها ولكنه فوجيء عندما سألتها والدته وهي تضيق عينيها بجدية وتركيز:

- أين هو مكان الشيخ عبد الفتاح هذا يا عنبر

زفر هشام بقوة وتوجه للداخل تاركًا مكانه خاليًا وقد بدأ يعرف ما هي الخطوات التي ستتبعها والدته لحل مشكلة زوجته، بينما لمعت عيني عنبر وهي تجيب بحماس زائد:

- ألم أقل لكِ يا خالة، على كل حال الشيخ يراعي مسألة التكلم على الناس المحترمة أمثالكم لذلك هو من سيحضر إليكم

أومأت والدة هشام برضا وهي تُتمتم موافقة:

- هذا ما كنت سأطلبه خصوصًا وأن الشقة تحتاج إلى زيارة منه

بمجرد أن أغلقت باب الشقة سمعت هشام يقول من خلفها بضجر ونفور شديدين:

- أمي أنا لا أحب تعريض جدايل لتلك المواقف من فضلك

- ولا أنا يا ولدي، ولكن ما باليد حيلة

ظل يذرع ردهة الشقة جيئةً وذهابًا وعقله يرفض الفكرة تمامًا، بالرغم من أنه لا يعرف ماذا سيفعل هذا المدعو عبد الفتاح ولكنه يخشى عليها، توقف فجأة والتفت إلى والدته التي كانت شاردة بعيدًا غارقة في أفكارها وقد فاض به الكيل:

- أمي أنا غير متحمس أبدًا لهذا الحل

تمتمت والدته وعيناها مازالت شاردة في النافذة أمامها مباشرة:

- لا تخف عليها أنا سأتصرف وأقنعها بضرورته

خرج هشام من بيت والدته بحركات عصبية ينطق بها جسده، هابطًا درجات السلم بسرعة كبيرة وهو يضع الهاتف على أذنه ويقول متوترًا:

- عادل قابلني بعد ساعة في مكاننا المعتاد، أحتاج التحدث معك بشدة

***

جلس عادل فوق الأريكة الخشبية وهو يضع ساقًا فوق الأخرى وذراعيه ممتدتان على ظهر الأريكة من خلفه وينظر بتفكير إلى ظهر

هشام الذى يقف أمامه مواجه لمياة النيل، وكفيه غارقين فى جيبى سرواله وبرودة الجو فى هذا التوقيت من العام تجعل من لقاءهما فى هذا المكان فى غاية الحمق، ولكنه ليس بأقل من الحمق الذى تملك من هشام وهو يواجه عادل عند بداية اللقاء و يرمى بوجهه اتهامه لزوجته رؤى بأنها سببًا مباشرًا فى الحالة التى وصلت إليها جدايل وخصيصًا بعد زيارتها لها أول أمس .

كادت أن تقوم بينهما مشاجرة حقيقية بينما عادل يدافع عن زوجته بشراسة ضاعف منها الهواء المثلج المنبعث من رئتيه، بقايا العقل دفعت هشام ليبتعد عن هتافه المنفعل عند هذه النقطة ويتوجه إلى سور الكورنيش مستندًا بجسده إليه وبداخله يعلم أنه أخطأ وتسرع وقد يتسبب هو هذه المرة فى هدم بيت صديقه أو على الأقل تكدير صفو حياته، تركه عادل ليهدأ قليلاً وجلس يفكر لعله يستطع الوصول لحل أمثل يجعله يحل مشكلة هشام دون أن يمس أحد زوجته رؤى ولو بكلمة واحدة، دقائق أخرى وبدأ الوضع بينهما يفتر شيئًا فشيئًا حتى قرر هشام إنهاءه بالكامل وتصحيحه، استدار نحو عادل متقدمًا نحوه ببطء حتى وقف أمامه تمامًا، ولكن الكلمات هربت من صدره فعاجله عادل قائلاً بهدوء:

- مجرد العلم بالشىء، رؤى زوجتى كانت ترفض اى تواصل مع زوجتك وأنا من ضغط عليها لتذهب لزيارتها

جلس هشام بجواره وهو يربت على كتفه وصوته يعبر عن إطراد الإنفعالات المتناقضة بداخله قائلاً:

- أنا آسف يا عادل، أعذرني، فأنا واقع تحت ضغوط أكبر من قدراتي على التحمل

مال عادل للأمام وهو يفرك كفيه ببعضهما البعض ويجمعها نافثًا الهواء بينهما لعل الدفء ينبعث فيهما ولو قليلًا، ثم قال بجفاء:

- لا تُبرر يا هشام، هذه الضغوط التى تتحدث عنها نابعة من مخاوفك، من عدم قدرتك على المواجهة، لا تنظر أبعد من أنفك - كالعادة -

قال كلمته الأخيرة بسخرية وهو ينهض واقفًا واضعًا كفيه بجانبي سترته الجلدية الثقيلة، قائلاً:

- أرجو أن لا تنسى فى خضم معتركك هذا أنك ستسافر بعد عدة أيام إلى مقر الشركة فى الأسكندرية لضرورة العمل

أومأ هشام برأسه موافقًا وهو يراقب انصراف عادل الذى ألقى كلمته وغادر دون انتظار الرد، معه كل الحق، لقد أقحم زوجته فى مشاكله الخاصة، وكأنه يخبره دومًا بأن زوجته رؤى مازالت تتمنى أنه لو وافق على الزواج منها، حتى وهى زوجة رجل آخر الآن، ودوافع الحقد بداخلها تحركها لتنغيص حياته مع جدايل .

هو يؤلم صديقه دون أن يشعر، ربما من أجل ذلك لم يُشر من قريب أو بعيد إلى المجلة والرسالة التى قرأها لها، واكتفى فقط بأن زيارته الأخيرة قلبت حالها وجعلتها شاردة سارحة فى ملكوت آخر. يبدو أنه ليس أمامه حل آخر سوى الذى تقدمه إليه والدته. الشيخ عبد الفتاح!.

***

بسروال أسود وقميص ناصع بياضه بلا رابطة عنق وفوقهما سُترة صوفية سوداء طويلة تصل إلى ركبتيه. دخل الشيخ عبد الفتاح شقة هشام بخطوات واثقة. تمهلت عينا والدة هشام عليه بنظرات ثقيلة. ربما تجاوز الأربعين من عمره بسنوات قليلة. ذقنه حليقة لامعة ورأسه أصلع من منتصفها تمامًا. أطلت الطيبة مع التواضع من عينيه إطلالة مُميزة بصحبة ابتسامة غامضة موشومة فوق شفتيه فلا تزول وهو يتجول بعينيه بأرجاء بأركان الشقة ووالدة هشام تأخذه من غرفة إلى أخرى مع صمت تام يُخيم على الجميع سوى من ضربات عكازها على الأرض أثناء سيرها وهمهمات خفيضة لا يستطيع أحد منهم فهمها تصدر من بين شفتي الشيخ عبد الفتاح. لم يستمر الصمت طويلاً حينما أنهى الرجل جولته ثم عاد إلى الردهة وهو يُناظر جدايل التى انكمشت بين ذراعي زوجها وبعينيها نفور وخوف تجاه عبير الواقفة ملتصق ظهرها بباب الشقة المغلق كما أمرها عبد الفتاح بعد دخوله ثم تحولت نظراته

المتجهمة الخائفة نحو الأخير الذى ابتسم عندما أخبره هشام بأنها تنتفض بقوة، فجلس على المقعد المقابل لهما وبنبرة هادئة قال:

- لا تُبالي، إنها تنتفض لرؤيتي

ارتفع حاجبي هشام بدهشة وقبل أن ينطق انفجرت الكلمات من فم عبير وهي تتكلم بهتاف كعادتها قائلة:

- لا تقلق يا أستاذ هشام، زوجتك بالتأكيد ملبوسة ومن يسكنها هو الذى يرتعش الآن، فالشيخ عبد الفتاح مشهور عند الجن - اللهم احفظنا - ويخافونه

أشار لها عبد الفتاح أن تصمت بينما قالت والدة هشام متسائلة:

- ماذا رأيت في الشقة يا شيخ، ومن ماذا تُعاني زوجة ابني؟

لازالت عينيه عالقة في عيني جدايل وهو يجيبها بنوعٍ من الإشفاق:

- حقيقة يا حالة، هذه الشقة ليس بها موضع قدم، قبيلة عن أكملها من الجن تعيشُ بها، أما زوجة الأستاذ هشام فلابد من أن أقوم بالكشف عليها أولاً

- ماذا؟!

هتف بها هشام باعتراض ودهشة بعدما حفزت عبارة الرجل الأخيرة دفاعاته كاملة فشد على ذراعيها يضمها إليه دون شعور، وهي

استجابت غامرة وجهها فى صدره أكثر، لا تعلم ماذا يحدث حولها، لا تعرف سوى بضع كلمات شحيحة قالتها حماتها قبل حضور ذلك الرجل بعشر دقائق لا أكثر، عن أنه رجل بركة سيقوم بحل جميع مشاكلها وبأنها لن ترى بعدها تلك الكوابيس المزعجة مرة أخرى!، أعادتها نبرة صوته التى شابها بعض السخرية إلى حاضرهم وهو يتحدث إلى هشام موضحًا:

– الكشف هنا يعني بأنني سأقرأ عليها بعض من آيات القرآن الكريم لأستطيع تشخيص حالتها

سكت هُنيهةً وبدى على ملامحه بأن هناك عبارة لازالت عالقة بجوفه، ثم أخرجها مُردفًا باهتمام :

– ولو أن بخبرتي الطويلة ودون كشف، أرى بأنها حالة مَسْ

حرفه الأخير خرج ممطوطًا قليلاً، محدثًا رنينًا مُزعجًا بمعناه وليس بصوته فقط وهو يمر بذبذباته بينهم، إلا أن تلك الحالة لا تقارن أمام التوتر والذعر الذى حدث بعدها عندما أكمل حديثه وهو يزيد من تركيزه بنظرات ثاقبة فى عيني جدايل:

– أرى وجه امرأة غاضبة يُطل من عينيها الآن!

لم تتوقف عنبر عن قول العبارة التى يبدو أنها لا تحفظ غيرها من حين لآخر:

- اللهم احفظنا

بينما أصبح الخوف سلعة رائجة بين الثلاثة الآخرين وقد تحولت نظرات والدة هشام وهى تناظر الشيخ عبد الفتاح إلى نظرة رجاء صامتة ترجوه العلاج، بينما أغمضت جدايل عينيها وهى تتشبث بقميص هشام الذى تجمدت عيناه على وجه الرجل الذى أومأ برأسه يطمئنهما وهو يمد يده بجيب سترته مُخرجًا لُفافة صغيرة بيضاء لم تزد عن حجم أصبعين من كفه قائلاً:

- لا داعي لكل هذا الذعر، مدة العلاج لن تزيد عن الشهر، جلستان فى الأسبوع، إذا إلتزمتم بتنفيذ جميع الطلبات

مَرحتْ ابتسامة ساخرة مرتعشة قليلاً على شفتى هشام، ودون تفكير قال مُعلِقًا:

- آه، هل ستطلب منا دجاجة مُطلقةً، أم كتكوتًا يتيمًا، أم ستقوم بالإعداد لزار و..

قاطعته ضحكة الشيخ عبد الفتاح التى انطلقت سابحة فى فضاء المكان وقد بدا المرح على وجهه، وبعد أن هدأ إلتفت إلى والدة هشام قائلاً:

- من فضلك يا خالة، أريد زجاجة مياه وإناء بلاستيكي متوسط الحجم إملأيه بالماء أيضًا وبعض قطع من ملابس لكل ما يقطن فى

أومأت المرأة برأسها وانصرفت للداخل تتبعها عنبر لمساعدتها بينما عاد برأسه إلى هشام قائلاً بنبرة مازال المرح عالقًا بها:

- انت قديم للغاية يا أستاذ هشام، حتى الدجالين اليوم لم يعودوا يستخدموا تلك الطرق وقد أستهلكت كثيرًا في الأفلام المصرية

صرف هشام عينيه عن الرجل بحرج وهو يدُس أصابعه أسفل ذقن حدايل وهو يهمس لها أن لا تخاف وأنه بجوارها في كل خطوة، دقائق قليلة وعادت عنبر حاملة الإناء البلاستيكي بين يديها وصدرها ينهت صعودًا وهبوطًا، وضعت الإناء عند قدمي عبد الفتاح

واعتدلت لتناول قطع الملابس من يد والدة هشام التي كانت تحمل زجاجة المياة بيدها الأخرى، أشار عبدالفتاح إلى الإناء وهو يوجه حديثه لـ عنبر آمرًا:

- اغمسي الملابس في المياه، اغمريها لآخرها

فعلت عنبر ما أمرها به ثم ناولته زجاجة المياة وابتعدت تقف بجوار والدة هشام، فتح الرجل الزجاجة ثم وضعها على الطاولة التي تفصل مقعده عن مقعد شاغر بجواره، ثم عاد إلى اللفافة الصغيرة الورقية التي أخرجها من جيبه مُسبقًا، فتحها أمام هشام وهو يشير إلى المادة التي تشبه الدقيق ولكن لونها أصفر قاتي يميل إلى الحمرة وهو يقول:

- هذا زعفران، النساء تستخدمه عادة لتحسين نكهات الطعام، أو لإضافة لونه إلى العصائر

تعاقبت نظرات هشام المضطربة بين والدته التي أومأت له مؤكدة وبين الزعفران وحامله الذي بدأ يُفرغه بدقة بداخل الزجاجة. فيمتزج لونه بالمياه ليتغير لونها إلى الأحمر الباهت، أغلق الشيخ عبدالفتاح الزجاجة جيدًا ثم رجها بقوة بين يديه لدقيقة كاملة ثم وضعها على الطاولة تاركًا أياها وهو يقول:

- الزعفران يؤذي الجن بشدة

قال كلمته وهو يرفع رأسه نحو عنبر بوشاحها الكبير وجلبابها الزاهي متسائلاً:

- هل معك منديلاً قماشيًا؟!

انتبهت عنبر وهي تتحسس جيبها فاستطرد وهو يوقفها بيده قائلاً بعفوية:

- انتظري أنا معي واحدًا تقريبًا

بحث في جيبه لثانية وأخرج المنديل بعدها ثم ارتكز بمرفقيه على فخذيه، جامعًا المنديل بين كفيه، قربه من فمه ثم أخذ يتمتم بكلمات مبهمة، لأكثر من خمسة عشر دقيقة وهو يتمتم هكذا، يرفع صوته

قليلاً بين حين وآخر فيستمعون إلى آية قرآنية يعرفونها ثم يعود ليخفض صوته مرة أخرى فلا يدركون بماذا ينطق لسانه !

انتهت الدقائق بشق الأنفس، وما كاد أن يرفع يده ملقيًا المنديل في الإناء البلاستيكي حتى حدث اشتعال طفيف، شهقت معه والدة هشام عاليًا وقد اتسعت عينا هشام عن آخرهما، بينما الشيخ عبد الفتاح يُطفيء الشعلة الطفيفة التي حدثت ثم يرفع رأسه إلى هشام قائلاً:

- روح زوجتك الميتة تسكن خزائن ملابسكم، وهي غاضبة للغاية !

وضعت والدة هشام يدها على صدرها في محاولة كسيرة لتهدئة خفقاته، وعندما وقعت عيناها على نظرات جدايل تملكت منها الدهشة، لقد كانت تنظر إلى الإناء ببرود وكأنها تشاهد عالم آخر موازي، لم تتأثر !، لم تكن هي وحدها التي تراقب عيني جدايل، بل كان الرجل يفعل نفس الشيء، وحين تكلم وجه حديثه إلى هشام وقال:

- أعتقد أن زوجتك المتوفاة بدأت تحضر بيتنا

قطعة من الجليد السائب فوق عموده الفقري وانحدرت إلى أسفل قدميه مثيرة زوابع مخاوفه فارتعش جسده بالكامل وبدأ يشعر بذراعيه تنحل دون إرادته ببطء من حول جسد جدايل التي تنظر إلى الجميع نظرات مبهمة كطفل لا يعي شيئًا مما يدور حوله، صار هشام مسلوب الإرادة، مستقبلاته العصبية في إجازة مفتوحة، ففتح الشيخ عبد الفتاح الزجاجة وناولها إلى هشام وهو يأمره أن يسقيها منها ثم يسقي والدته

موجها مرة واحدة فقط، الأخرى تفوحت بالأمل. فعلى هشام ما أراد
وأخذ يسقيها بيد مرتعشة، ثم أرسلها عن طريق عمر إلى والدته
فشربت منها دون حساب. فعلى الشيخ عبد الفتاح وأخذ يتمتم في
توقف النقطة تحديدا وهو يكتم من جديد من غرفة الأخرى بعد رحيب
والدقائق ثم ساخرة من الشيخ، ثم رجع إليهم ثانية وهو يشكو إلى هشام
ذلك يوقف روحه فتنصف الزوجة ليبدأ القراءة عليها. كان هشام يعرف
ما يقوله الرجل وكأنه دخل في حالة نوم مغناطيسي، خوفه هو الذي
حركه لا إرادته. أوقفها فانتصفت قائمة وما إن بدأ يقرأ حتى سقطت
على ركبتيها وأخذت تضحك كالمجانين، هو مستمر بالقراءة وهي
مستمرة بالضحك الذي يعلو أكثر فأكثر حتى تحول إلى نشيج وبكاء ثم
أخذت تنادي وتصيح بكلمات لكنها متقطعة

— هالة... يا هالة... انظروني... إلى

كان هشام يتابعها وهو لا يشعر بالدموع التي انسكبت على
وجهه، متى ذلك المسكينة في كل ما يحدث، هو الذي تزوجها
ولاحقها بينه وهو الذي فقدها، وأخذ يهمس دون وعي منه

— أرجوك يا هالة اتركيها، انتقمي مني أنا، فأنا المذنب الوحيد هنا

وفجأة صرخت عمر عندما سقطت والدة هشام بين يديها، أسرع
هشام إليها يجثو وركبتيه بجوارها ينظر إلى شحوب وجهها، فلم
يجد تلمس النبض بعنقها فوجده يضعف ويتلاشى شيئا فشيئا،

عيناها جامدتان وأنفاسها تتسارع وكأنها تتنفس من سُم الخياط، تُصارع الحياة، وقتها نسي زوجته التي تهذي، العالقة بين عالمين، وعبير التي تكتم صرخاتها بكفيها وبات وجهها كالأموات وهي تنظر إلى عبد الفتاح الذي كان يبحث عن زجاجة المياه ويدُسها بسترته قبل أن يفر هاربًا، كل الصور تتحرك من حوله ببطء قاتل كـ بطء نبضات والدته في تلك اللحظة، والتي تنبأ بأنها ستتوقف ساكنة بين ثانية وأخرى.

ربما يحلم بعضنا بالموت، ولكن مواجهته فعليًا، تجعل مقارنته بالحلم أمر سخيف!

***

إختفاء

لم ينتظر المصعد، قفز درجات السُّلم طابقًا ينتهي ليبدأ بآخر حتى وصل إلى طابقه المنشود، ظل يعدو بين أروقته حتى تراءى له جسد هشام من بعيد، كان يتحدث إلى طبيبًا خرج لتوه من حجرة مجاورة، أسرع الخطى وصدره ينْهت بشدة من الإنفعال والمجهود، مجهدًا نفسيًا أكثر منه بدنيًا، منذ أن تلقى الإتصال السريع من هشام قبل قليل، يخبره على عجالة بأن والدته بين الحياة والموت فى المشفى، طيلة الطريق وهو يُحضر نفسه لتلقى صدمة قاتلة له ولصديقه، وعندما رأى الطبيب يقف مع هشام هرول نحوهما بأسرع مما تكون الخطوات، واستقر واقفًا خلف صديقه واضعًا كفه على كتفه، إلتفت هشام إليه ثم عاد يلتفت إلى الطبيب الذى ألقى نظرة عابرة نحو عادل ثم تحول بعينيه واهتمامه نحو هشام مستكملاً الحديث الذى بدأه للتو:

– كما قلت لك يا أستاذ هشام، تحليل عينات الدم أثبتت أنهما تناولا عقارًا مُهلوسًا، والدتك لم تتحمل مضاعفاته، ولكن لا تقلق هى الآن حالتها مستقرة، ولكن ستبقى معنا هنا لعدة أيام قبل أن تخرج معك

تمتم عادل مصدومًا:

- عقار هلوسة!

لم يظهر على هشام أنه قد استمع لتعليق صديقه. فلقد كان يزدرد ريقه الجاف بجفاف حلقه وهو يتابع تساؤلاته:

- وزوجتي؟

عدل الطبيب من وضع عويناته قبل أن يجيب بعملية تشبها الحوار:

- بخير، وتستطيع أن تأخذها بمجرد أن تستيقظ.

ابتسم وهو يستدير ليغادر فلم يستطع عادل كتم انفعالاته أكثر من هذا، أدار هشام ليواجهه وهو يهتف بانزعاج:

- ماذا حدث معكم يا هشام، أي عقار مهلوس هذا؟!!

تمتم هشام وهو يتجه نحو أقرب مقعد ليرمي فوقه حمل جسده المنهك، الموشك على الانهيار بالكامل، مستندًا بمرفقيه إلى فخذيه يتنفس، وهذه في حد ذاتها معجزة، إنه يتنفس أخيرًا. لقد ظن بأنه قد فقد القدرة على التنفس منذ أن سقطت والدته أمام عينيه وحتى خرج إليه الطبيب ليطمئنه بأنها بخير. أخرج انفعالاته في زفرة طويلة متعبة قبل أن يلتفت نحو عادل الذي جلس على المقعد المجاور له مقابلاً بجسده نحوه. عيناه مترقبتان لما سيخرج من بين شفتي هشام بلهفة صبر، بينما يقص عليه ما حدث منذ دخول الشيخ عبد القدوس المصاب إلى بيته

بعد أن دفع له مئة جنية عن الزيارة الواحدة، وحتى خروج والدته وزوجته إلى سيارة الإسعاف .

ضرب عادل ركبتيه بقبضتيه وهو يهتف بعصبية لم يستطع التحكم بها:

- النصاب، ابن الـ (.....) ، كيف تُدخله بيتك يا هشام، كيف؟!

مرت أمامهما مُمرضة فى هذا التوقيت الخاطىء، فالتفتت نحوهما بتقزز وقد ضرب لفظ عادل أذنيها، وأسرعت خطواتها تتخطاهما بنفور.

وضع هشام يده على قبضة عادل المستقرة على قدمه، وربت عليه مُهدئًا وهو يقول بإنهاك شديد:

- سأحرر محضرًا ضده فى الصباح، الآن أنا مقتول ذهنيًا يا عادل، أرجوك

أستند كلاهما إلى ظهر مقعديهما فى صمت مطبق، كل منهما فى عالمه الخاص، هشام غائب فى زوايا عقله حيث ذكريات اليوم المؤلمة تمر أمام عينيه بحركات بطيئة والإفتراضات تغزوه من كل اتجاه متصورًا بأن عقار الهلوسة ذاك الذى وضعه عبد الفتاح مع الزعفران فى زجاجة المياه، كان بدلاً منه عقارًا آخر، ربما مُنومًا، ماذا لو أصر على أن يشرب هشام هو الآخر، كان ثلاثتهم سيناموں منزوعي الإرادة وبصحبة نصاب ومساعدته، ترى ماذا كان سيحدث، نفض رأسه بقوة وهو

يرفض تلك الصور البشعة التي مرقت بعقله، تضرب رجولته في مقتل، عادل معه حق، هو السبب بلا شك، كان محقًا عندما قال له بأنه يفتقر إلى ميزة مواجهة مشاكله، ولا ينظر أبعد من أنفه، شعر بيد عادل تربت على كتفه وصوته الهادئ يتسلل إليه متسائلاً:

- أين حبى و لجين الآن؟

إكتفى هشام بالنظر بطرف عينيه وهو يجيبه بخفوت:

- هذه ميزة الأحياء الشعبية يا عادل، عندما وقفت سيارة الإسعاف أمام المنزل ورأى الجيران والدتي وزوجتي يدخلان إليها، أصرت أكثر من جارة لنا على اصطحاب بناتي معها في بيتها، والحمد لله لقد كانتا نائمتين أثناء كل هذا في شقة والدتي بالأسفل فلم يشعرا بشيء، وفي النهاية استقرتا عند زوجة ياسين جارنا، أنت تعرفه

أومأ عادل برأسه مؤكدًا بوهن قائلاً:

- نعم، وسأمر عليه لآخذهما معي إلى بيتي حتى تتحسن صحة زوجتك

رفض هشام رفضًا قاطعًا بعد أن شكره ممتنًا، فزوجته ستعود معه بمجرد أن تستيقظ من النوم على إثر المهدئ الذي حقنها به الطبيب وقد كانت حالتها يرثى لها وهي لا تتوقف عن الهذيان والقيء .

واحد يُمني نفسه بكل ماهو جميل، سيعود كل شيء على ما يرام، ستتعافى زوجته وبعد أيام ستخرج والدته من المشفى وقد استعادت صحتها، وترجع بناته إلى دار الروضة وستتحسن حالة تأخر الكلام لديهما ولتصبحا مثل أقرانهما في تلك السن، سيتابع نفس الحلة بعد صدور العدد القادم منها وسيجد أنه لا رسائل أخرى تحمل عنوان " قالت لي"، نعم، سيكتشف بأنها كانت مجرد مُزحة، مزحة سخيفة لا يعلم مصدرها، كل شيء سيكون بخير، لاشك في ذلك!

***

في اليوم التالي عادت جدايل بصحبته إلى بيتها، ولكن رافضة لأي تواصل معه، ترفض حتى التواصل البصري ولو بنظرة واحدة، أخذت الفتاتين من بيت ياسين شاكرة زوجته ثم صعدت حيث شقة حماتها، أصرت على عدم الصعود معه لشقته، إنفصلت عنه انفصالاً تامًا لأيام، لم يرها فيها إلا أوقاتًا قليلة جدًا، إما عندما يأتي بعد عودته من العمل ليلاً ليرى بناته لدقائق قبل أن ترفض هي أن ينام معهن بنفس الشقة، أو عندما تذهب لزيارة والدته في المشفى وفي نهاية الزيارة ترفض أن يقلها بسيارة اجرة إلى المنزل وذلك في المرات الشحيحة التي تصادف تواجده مع حضورها هناك .

وكعادته النظر، إنتظر حتى تُحل الأمور من تلقاء نفسها مع الوقت وكأن شيئًا لم يكن، غافلاً عن الإشتعال الذى يزيد بتجاهله لشرارته

وتركها تلفظ وحدها!. هل هذا هو الإهمال الذي كانت هالة تتحدث عنه في وصيتها. الإهمال القاتل، تشعل الحرائق، ضاربًا كعادته عرض الحائط معرفته الحديثة بأن طرق باب قلب الأنثى يستلزم قبله حمل حقائب الاهتمام.

***

وجاء اليوم الذي كان ينتظره بقلق، يوم صدور العدد الجديد من المجلة. لم يكن في كامل تركيزه ذاك اليوم أثناء عمله، ذهنه تشتت تمامًا لدرجة أن استرعى انتباه عادل من شدة شروده، عيناه واطئتا على مراقبته وكأنه مشهد لا يريد تفويت تفاصيله، وقبل نهاية اليوم حاول أن يسأله بخفوت عن السبب، معتقدًا أنه ربما ساءت حالة والدته الصحية ولكن هشام طمأنه بأنها بخير وأن الطبيب سمح لها بالعودة غدًا إلى المنزل.

كم يحب اهتمام صديقه بما يؤرقه، وكم يكره قيامه بتسليط الضوء على المشكلة الحقيقية بداخله!. لم يكن بمقدور عادل الضغط عليه ليتحدث أكثر من هذا، فهو أيضًا يعيش نوعًا من التوتر مع زوجته رؤى دون سبب واضح، وبرغم إصراره عليها يوميًا أن تحكي له ماذا يوترها، فتبدو وكأنها ستتحدث، وقبل أن تنطق بحرف واحد تُغلق شفتيها وتدعي حاجتها للنوم. زفر ببطء طاردًا جميع انفعالاته المطّردة، والتفت نحو هشام الجالس على المقعد الجلدي خلف مكتبه ومال بجذعه نحوه

ثم قال محفوظ:

- مواعيد العمل شارفت على الإنتهاء، ما رأيك لو تنصرف الآن، فأنت ستسافر باكرًا ولابد وأن ترتاح جيدًا

سقطت عبارته على منطقة حيوية برأسه يفكر بها منذ أن جاء إلى العمل صباحًا، متى سيغادر ليبتاع المجلة؟، بل متى سينفرد بنفسه ليبحث فيها عما لا يريد أن يجده؟!، تبرعت عينيه بالإجابة رافقها تحرك جسده وهو ينهض على الفور و يومىء برأسه بتعب مُدلكًا عنقه المجهد وهو يقول:

- أنا فعلاً فى حاجة شديدة للراحة إستعدادًا للسفر

جمع أوراقه المُبعثرة بإهمال فوق سطح مكتبه يَضمهم إلى بعضهم البعض بداخل أحد الدفاتر، ثم أغلق خزانة المُستندات بإحكام قبل أن يلتفت إلى عادل مُحييًا إياه وهو يغادر إلى أقرب بائع جرائد ومجلات يقابله فى طريقه .

***

منذ أن ابتاعها وأمسكها بيده وهى تقذفه بين هواجسه المتوالية، تُشعل فتيلها شيئًا فشيئًا، حتى قرُب صبره على الإنفجار، وعندما وصل إلى المنزل لم يمر على شقة والدته كالعادة، لم يكن باستطاعته ممارسة الإنتظار أكثر من هذا !.

وفى غرفة نومه وفوق فراشه أستلقى بكامل ثيابه، لم ينزع عنه سوى حذائه فقط، الأمر بالنسبة له حياة أو موت، كمن تأتيه رسائل من قاتل مجهول، وفى كل رسالة يجد بها علامات ترشده إلى شخصيته الحقيقية! بدأ يُقلب صفحاتها بقلة صبر، حتى توقف أخيراً أمام صفحة بريد " بين الناس" إلتهمت عيناه السطور حتى سقطتا على ما لم يتمنَ يوماً مُعاينته، الرسالة الثانية منها إلى الصحفى عبدالخالق مروان، تحت عنوان التى اختارته فى السابق" قالت لي" :

هل تعرف سيدي قول الكاتب آرثر ميللر عن هؤلاء الأشخاص الذين يُفضلون أن يُشنق الجميع على أن يوجه إليهم عتاب ما أو يعترفوا بأخطائهم؟!، أحد هؤلاء الأشخاص هو زوجي!، فعندما كانت تتكاثر بصدري أفعاله حتى تتعاظم ولم أعد قادرة على حجبها بداخلي أكثر من هذا فأعاتبه عليها، وقتها كنت أشاهد وجهه يحتقن بالضيق، قبل حتى أن يفهم مشكلتي الحقيقية، يُغلق قلبه عن سماع بقية عتابي ويترك عصبيته تُنصت لي وحدها، نظراته تتحول إلى صخر، وكأنه لايراني أمامه فى تلك اللحظة، فقط يرى أخطائه تتجسد فِيّ، فتكرهنى عيناه بشدة ثم يحدث الإنفجار!

إنفجار يطيح بي وبه، يُبعثر أشلاء سنوات قضيتها معه، فى خدمته وفى محراب حبه، والآن أتساءل، ماذا لو كان يسمعنى وقتها بقلبه، ماذا لو تفهم عتابي، ماذا لو تحركت شفتاه بكلمات تروي صحراء حي

القاحلة، بدلاً من دبيب الصمت الذى يُمعن فى قتلي به !، اتعلم سيدي ان فى تلك اللحظات كان للصمت عندى ضجيج يثير أعصابي ويُفقدني ما تبقى لدي من تعقل!، لا لأن الصمت هو من يؤذيني فى حد ذاته، بل لأنه كان يلتهم مني كل صبر وأنا أنتظر كلمة واحدة منه تُطفىء النار المشتعلة بروحي!، صبر مغموس بالإنتظار الذليل، ككلب يلهث ينتظر ان يُلقي إليه سيده بفُتات طعامه.

ولم يكن يفعل!، ومن شدة عجزي وقهري منه ذات ليلة، أتيت بسكين وحززتُ أطراف شعري حتى شعُرت بألم مُبرح يغزو فروة راسي، ثم وضعت شعري المُمزق على شاشة هاتفه وهو نائم، أعلم أنها حالة جنونية أصابتني ولكن الجنون الأكبر أنه عندما استيقظ ليأخذ هاتفه أزاحه بعيدًا وتناول إفطاره وذهب إلى عمله، لم يُكلف خاطره بإلقاء نظرة علي ليتفقدني هل أنا على قيد الحياة أم لا !، وكان قهري أصبح من المُسلمات البديهية لديه !.

أعلم أنك ربما تُفكر أو أحد قراءك، لماذا لم أطلب فراقه؟، لماذا وقد استحالت العِشرة بيننا إلى جحيم صامت؟، ذاك السؤال طاف بذهني ذات يوم وألحّ علي بقوة حتى كدتُ أن أتخذ قرارًا به، ولكننى توقفت فى لحظة صدق أمام المرآة، أنظر إلى نفسي، امرأة تجاوزت الثلاثين و طفلتان، أنفقت كل ما تملك على شقته والأثاث المتواضع بها، نبذها أهلها بسببه، نبذها هو شخصيًا، عاطلة لا تعمل!، ترى ماذا ستتحصل

في النهاية إلا على ضياع كامل، في مجتمع يحمل المرأة المطلقة كل الأسباب، كل العيوب، بل ويطمع بها أيضًا !.

أما الآن ومع زوجته الجديدة "جيم" فهو متفهم للغاية، يحتضن لها ومشاكلها، اعترف بأنه أحضر إلى المنزل رجلًا نصابًا ليمنعني عنها!، وإن كنت بينهم، أشاهد وأضحك، كان مشهدًا مثاليًا لتسليتي بالفعل، كان يستحق ما حدث له في النهاية، وسيستحق ما سيحدث له بعد ذلك، فلقد قررت أن أنهي تلك اللعبة بطريقتي .

لماذا هو ينعم معها بينما كنت أنا كنت أتعذب لديه، لابد وإن يفقدها ليشعر بما شعرت به يومًا، يشعر بالعجز، بالقهر، بالذل، ولن يجدها ثانية .

كنتُ أحب أن يكون السلام ختامي، ولكن تلك الكلمة غريبة عندما تبحث عنها بين دفتي أيامي .

ظل هشام يقرأ ويقرأ وانتهت سطور رسالتها في اللحظة التي اكتشف فيها أن غلالة الدموع في عينيه أصبحت ثقيلة للغاية، ثقيلة لدرجة تجعله يُجهد بصره في النظر إلى السطور القليلة التي كتبها عبد الخالق مروان تعليقًا على رسالتها:

– حالة يزيد تفردها تفردًا، حالة مجهولة الخطر، سفت أطراف مشاعري وتفكيري إرباكًا من نوع خاص، يُغري حاستي على التمعن بها أكثر في محاولة لفهمها، بل ومحاولة مراسلتها لتكتب

أكثر وأكثر عن نفسها، وعليه فلن أتوجه بنصح إليها الآن، سأجعل قلمي محايدًا وهو يوجه حروفه نحو بعض الأزواج من هذا النوع، وإليهم أقول :

- إرفع رأسك أيها الزوج وانظر إلى المساحات الشاغرة في قلبك، ومن حولك، وابحث عن زوجتك، تخطى جدار الصمت الذي علا بينكما يومًا بيوم، فلربما تجد هناك "هاء" أخرى تبكي نبذها بقهر.

أسدلت عيناه ستائر جفونها وسقطت المجلة فوق وجهه، لقد أيقن بأنها كلمات هالة، ولغرابته لم يرتعب كما المرة الأولى، حتى وإن شعر بما حوله في تلك اللحظة، حتى وهي تقول بأنها لن تتركه ينعم بسلام، رفع رايته واستسلم لأي شيء، المهم أن ينتهي كل هذا !

***

استيقظ في الصباح وهو لايعرف كيف سرقه النوم بالأمس، كل ما يتذكره آخر كلمات قرأها وأغمض عينيه دون أن يشعر، بينما سقطت المجلة فوق وجهه تفصله عن العالم، نهض فجأة كالملسوع وهو يهتف باسم " جدايل"، شيء غامض بداخله نبت فجأة لا يعرف ما هو، كل ما يعرفه بأنه يخبره بأن حياته أصبحت، ناقص واحد !، شيء اختفى، وربما إلى الأبد !.

نظر إلى ساعة معصمه العالقة بيده منذ أمس، لقد تأخر كثيرًا، كان يجب أن يكون في طريقه إلى محطة القطار الآن، لم يفعل شيئًا سوى أن ضرب وجهه بعدة دفعات من الماء وهو منحنٍ أمام الصنبور، ثم انطلق يرتدي حذاءه على باب شقته ويهرول على الدرج، كان لابد من أن يطمئن عليها وعلى فتياته ولو لدقيقة واحدة، فتح الباب بمفتاحه الخاص وأخذ يتلفت حوله وهو ينادي عليها بنبرة منخفضة، ولكن لم يجبه إلا الصمت المُطبق، حدث نفسه بأنها ربما تكون نائمة فالوقت لازال باكرًا جدًا وموعد دار الروضة لم يحن بعد، كاد أن يغادر ولكن آخر عبارة برسالة هالة قفزت إلى ذهنه ودفعت قدميه للبحث عنها بجميع الغرف، لا أثر لأي منهن بالشقة على الإطلاق، وقف بمنتصف الردهة يحاول طرد الأفكار السيئة عن عقله، ربما ذهبت لزيارة والدته بالمشفى؟، لم ؟، أم ماذا !، إلى أين ستغادر في تلك الساعة؟!.

أغلق الباب خلفه بتوتر وعاد يقفز درجات السُلم مُحددًا المشفى هدفه وبالتأكيد سيجدها هناك!، اصطدم رغمًا عنه بجاره ياسين الذي كان يخرج من شقته في ذلك الوقت متوجهًا إلى عمله، فابتسم ياسين له وهو يلحظ حالة هشام المرتبكة المُشعثة وقال بحماس:

– أستاذ هشام!، صباح الخير

تجاوزه هشام وهو يرد تحيته سريعًا ولكنه توقف فجأة عندما سمع ياسين يقول من خلفه:

– لا تقلق على حالتك، والله عشت حياتي أن أهتم على والدتك [illegible]
إذا كان لديك متسع من الوقت

استدار هشام إليه بعد أن قطب جبينه [illegible]
قاله ياسين لتوه، أو ربما رفض الاستيعاب

– حالا؟!

تابع ياسين والحيرة تنازع القلق في ملامحه وتفرض سيطرتها

– وأنا عائد من صلاة الفجر وقبيل الشروق وجدت [illegible]
أعلى السلم شاردة، [illegible] [illegible]
أن تسقط أرضًا، [illegible] [illegible]
قلبي أختي، وغادرت وهي في حالة [illegible] [illegible]
حالة والدتك.

ذابت كلماته الأخيرة بين شفتيه وهو يواجه ملامح هشام التي [illegible]
عليها الانفعالات [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] خلفه قبل أن [illegible]
حالته:

– من فضلك، أعطني عنوانها حتى [illegible] وإذا حضرت زوجتي [illegible]
وقت اتصل بي على الفور

ثم غادر سريعًا بعد أن أومأ له ياسين موافقًا بإشفاق. أسرع يعدو تجاه أول سيارة أجرة استجابت لإشاراته، وبمجرد أن استقر بداخلها حتى أخرج هاتفه مُجريًا اتصالاً بصديقه مُخبرًا إياه بما حدث بصوت متقطع وبغير تركيز، فقال عادل على الفور وهو يمسح وجهه بيده الأخرى، محاولاً إيقاظ حواسه التي كانت مازالت نائمة:

- لا تحمل همًا يا هشام، عندما تصل إلى المشفى وتطمئن على والدتك وزوجتك أتصل بي، واذهب انت حتى لا تفوت قطارك، وأنا سأتكفل بالأمر.

أبواب المشفى كانت مُغلقة إلا من الأبواب الخاصة بالعيادات الخارجية المُلحقة بها فقط فموعد الزيارات لم يحن بعد، دخل من تلك الأبواب وظل يعدو بين أروقتها الطويلة يمينًا ويسارًا ثم استقل المصعد المؤدي إلى الطابق المنشود، انطلق مباشرة من المصعد بعد توقفه، حيث غرفة والدته، دلف إليها بِبطء برأسه أولاً وهو يدعو ان تكون جدايل قد اتخذت نفس الطريق إليها، ولكن عينيه صُدمت بالسرير المُوافق لسرير والدته خاليًا، ولا يوجد أحد غيرها بالغرفة، وهي سابحة في نومها، انتفض عندما شعر بيد توضع على كتفه ثم صوت أنثوي يقول:

- ماذا تفعل هنا في تلك الساعة

إلتفت مستديرًا للخلف فوجدها الممرضة المسؤولة عن هذا الرواق بكل المرضى الساكنين غرفه، زفر بتوتر ثم قال بخفوت:

- هل تعرضت والدتي لمضاعفات بالأمس

رمت المُمرضة شفتيها وهو تمس خائفة:

- كنا سنتصل بك لو حدث ما تقول، والدتك بخير وستخرج اليوم ولكن ليس في هذه الساعة بالتأكيد

سألها عن زوجته فأجابت بنفس الحنق أنه أول شخص تراه اليوم في الرواق بأكمله، ثم طردته من الغرفة وهي تتوعد رجال أمن البوابات المتساهلين!، خرج من المشفى بنفس الطريقة التي دخل بها، هاتفه ملتصق بأذنه في محاولة ربما تجدي نفعًا، ولكن الهاتف القاطن بيت عمها انقطع رنينه مرات ومرات ومازال لا يرفع سماعته أحد. يكاد يُجن، نظراته تموج بين الهاتف وساعة معصمه، لم يتبق الكثير، لابد وان ينصرف، لم يكن أمامه حل آخر سوى إجراء اتصال أخير ، عادل ليطلعه على التطورات ويرجوه أن يُسافر بدلاً منه فكلاهما يستطيع تنفيذ المهمة.

***

بحث عنها في كل مكان من المُمكن أن تتواجد به، والاتصالاته المتكررة بمنزل عمها لم تتوقف، ولكن دون فائدة، إن كانت لم تذهب إليهم فلماذا لا يجيب أحد على الهاتف على الأقل، الاتصالات لا تجدي نفعًا!، الطوابق التي صعدها يتردد بصحبة والدته من قبل يصعد

سُلمها الآن قفزًا، طرقات وطرقات ولكن لا مُجيب أيضًا، مازالت الرسومات على الحائط المجاور للشقة تستفزه وتُثير غيظه أكثر، فُتح باب الشقة المقابلة وأطلت منها رأس امرأة أربعينية بملامح متحفزة، ومن بين حافتي الباب ظهرت يدها تحمل منفضة غبار، هاتفة بعصبية:

– من أنت وماذا تفعل ؟

استدار إليها محاولاً الإعتذار بتوتر ولكنها لم تصمت أو تتراجع وهي ترمي باعتذاره عرض الحائط بتصميم شديد على أن يُعرف نفسه، لم يشأ أن يدخل معها فى جدال طويل، فالمنفضة فى يدها المُمتلئة تُنبيء عن قوة سلاح لم يختبره بعد!، فقال بأدب:

– أنا هشام، زوج جدايل التى تس...

لم تُمهله ليستكمل عبارته، ولكن هجومها هذه المرة مختلف وقد تغيرت ملامحها إلى الترحيب والتبسط، حاول بشق الأنفس مقاطعتها والسؤال عن جدايل وعمها، فأجابته بدهشة وهى تُلوح بالمنفضة:

– لقد سافروا بعد زواجكما يا أستاذ، ألم تكن تعلم؟!

من المؤكد أن هذا هو اليوم العالمي للدهشة والمفاجآت، متى سافروا؟ وإلى أين؟ تلك التساؤلات مرت من عقله إلى شفتيه فلم ترد المرأة إلا تعجبًا وهى تقول مُثرثرة:

- والله لا علم لي يا أستاذ، ولكن زوجة عمها أخبرتني أنهما في الأساس مستقرين في الخارج منذ سنوات طويلة مع أولادهما الكبار ولم يأتوا هنا إلا لإجازة قصيرة، فهما لايستطيعان ترك أولادهما أكثر من هذا وحدهم

يُصر هذا اليوم على أن يفقده عقله، لو كانت ما تقوله المرأة ذو المنفضة صحيح، فكيف قال له عمها بأن جدايل تعيش معه منذ ان فقدت والديها، جمعت المرأة شتات أفكاره منادية باسمه، رفع رأسه تجاهها دون تركيز، فقالت تسأله بفضول:

- لماذا تطرق الباب، هل ضاع منك المفتاح؟!

أجابها بنفاذ صبر بعد أن أرسل زفرة طويلة ربما تعود إلى شقتها وترحمه:

- ولماذا يجب أن يكون معي مفتاح؟

بعفوية وبتلويحة أخرى من منفضتها وكأنها توبخه:

- لأنها شقة زوجتك، ويجب أن يكون معك مفتاحًا احتياطيًا، أهذا أفضل أم تصديع رؤوسنا بطرقاتك على الباب؟!

شقتها وليست شقة عمها؟!، مفاجأة أخرى أدارت رأسه وجعلته يشك بكل شيء كان يعلمه من قبل، جعلته يشير إليها أن تتوقف قليلاً ويسألها محاولاً الفهم:

- هل انتِ متأكدة بأنها شقة جدايل وليست شقة عمها؟

زفرت بضيق وعلا رنين هاتف منزلها فنظرت للداخل ثم التفت نحوه مُجددًا وهي تُخرج من صدرها مجموعة مفاتيح مجموعين في سلسال من خيط الصوف، بأسنانها فكت عقدة الخيط وأخرجت منها مفتاحًا وحيدًا وعادت تربط الخيط من جديد، مدت له يدها بالمفتاح وهي تقول على عجالة:

- زوجة عمها تركت لي نسخة من المفتاح لأي طارىء، تفضل خذه، أنا غير متفرغة لكل من هب ودب.

ألقت له المفتاح فتلقفه قبل أن يسقط وقبل أن يعود بنظره المذهول إليها كانت قد عادت للداخل مُغلقة الباب في وجهه بنزق !.

ظل مُتجهمًا مكانه للحظات، وأخيرًا استطاع التحرك نحو الباب، أدار المفتاح وبسهولة كان داخل الشقة، لم يرى من تلك الشقة سابقًا سوى جزءًا من الردهة وغرفة الاستقبال التي دخلها أكثر من مرة بعد أن رآى جدايل فيها لأول مرة، بتوجس دلف من غرفة إلى أخرى، رائحة الفراغ من حوله تخنق أفكاره وتُشتتها أكثر، الآن هو في غرفة ضيقة بسريرٍ خشبي صغير، ومكتب خشبي أصغر منه، خلفه مقعد له أرجل رفيعة للغاية خشي أن يجلس فوقه فيحطمه، يده تعبث بلا هدف فوق سطح المكتب باحثًا عن شيء يدله في متاهته تلك التي دخلها بإرادته، أي إشارة لطريق العودة!، لفت نظره دفتر صغير مألوف لديه،

اسم ابنته جنى المدون عليه وفر عليه الكثير من محاولة تذكر أين شاهده من قبل، بمجرد أن أمسكه بين يديه تذكر كل شيء، إنه الدفتر الذى كتبت فيه هالة وصيتها له، وأخذته والدته من يومها ولم يره، هل خبأته لدى جدايل؟!.

قلب صفحاته بشرود حتى وقعت عينيه على الرسالة التى كتبتها هالة وتركتها لـ جنى و لُجين، لم يقرأها تفصيليًا من قبل، فقط وقعت عيناه على بعض كلمات مُكررة منها، بدأ يقرأها من البداية وحتى نهايتها حتى وقعت عيناه على جملة لم يكن ليلحظها فى ظروف أخرى "ولقد وصيت جدتكما أن تحتفظ بكل أشيائى لكما، لم أستثنِ إلا حجابي الرمادي، فهو لمعلمتكما رؤى التى ستُصبح أمًا لكما بعد وفاتى، لقد خصصتها به لعدة أسباب، الأول لأنني أردت دعوتها بشكل غير مباشر لارتداء الحجاب، والثاني لأنه يليق جدًا بعينيها الرماديتين"!.

***

مال عادل باتجاه رؤى التى بجواره بداخل القطار يتأملها وهى تنظر من نافذته بشغف كبير، عندما فاجأها صباحًا بسفره السريع تشبثت به وهى ترجوه أن يصحبها معه فهى لم تزر الاسكندرية من قبل، وبرغم برودة الجو إلا أنه لم يستطع رفض رجاء عيناها وإلحاح كلماتها، كل ما استطاعه هو أن يؤكد عليها بأنها ستكون وحدها فى الشقة التابعة للشركة طيلة النهار تقريبًا، فالمُهمة فى الأصل مهمة عمل، وهى وافقت

بسعادة، ستجلس فى الشرفة تُشاهد البحر وأمواجه العالية فى هذا الفصل من السنة وستتجمد أطرافها، ولكن لا يُهم، المُهم أن تراه ولو من بعيد، رحبا والداه وبالأخص والدته باستضافة طفله حتى يعودان فى الغد، وهاهى تجلس فى المقعد المجاور تستمع بكل ما يمر بها من حقول وحيوانات حتى أعمدة الإنارة المُطفئة !، همس بأذنها مُداعبًا:

– سعيدة يا زيتونة ؟

إلتفت نحوه بنزق وهى تلكزه بخفة فى ذراعه:

– توقف عن مناداتي بزيتونة، وإلا رميتك من القطار الآن

ضحك بخفوت وهو يرفع كفيه باستسلام، وبنبرة خاصة تُحبها قال:

– وهل ذنبي أن عيناكِ سوداء سواد الليل يا زيتونة

أطرقت برأسها بخجل فوضع أنامله أسفل ذقنها ورفع رأسها مُتابعًا بعتاب وقد وجدها فرصة سانحة:

– ألن تقولي لحبيبك ماذا تُخبئين بقلبك

ألقت نظرة سريعة إليه فلاحظ غلالة من الدموع بدأت تتجمع بعينيها، مسح وجنتها بحنو ودفن كفها بداخل راحته الكبيرة وهو يربت عليه بمساندة و يحثها على الحديث قائلاً:

– تأكدي أن ما تداريه عنى لن يُغير من حبي لكِ شيئًا مهما كان

ادلهمت عيناها بُسحب تنذر بهطول دمعها وتفضح شعورها بالذنب تجاهه وقالت بصوت خافت مُتقطع:

- هل تعدني؟

أومأ برأسه بثقة مؤكدًا لها صدقه، وصدره يضج فى انتظار تلك الحقيقة التى تخشى أن تبوح بها بقلة صبر استطاع أن يُداريها حتى لا تتراجع، وهو يُتمتم بقوة:

- أعدك حبيبتي

سمِعَ تنهُداتها الناعمة المضطربة قبل أن تميل برأسها نحو كتفه وتقول بخفوت:

- ولكن لا تُقاطعني أرجوك، هل تذكر اليوم الذى عدتَ فيه من عملك فوجدتني أرتعش وأبكي واختبأت فى حضنك؟، لقد كذبتَ عليك هذا اليوم عندما سألتني، أنا لم أفقد وعيي فى المتجر كما قلت لك ولم أقض اليوم مع عاملاته، لقد، لقد كنت عند جدتي فى منزلها

أنتفض بعنف فى مقعده وهو يستدير نحوها بجسده كله هاتفًا دون وعي:

- ثانيةً يا رؤى؟، تذهبين دون أن تُخبريني!، وماذا حدث هناك، تكلمي

علا صوت نشيجها وهى تجيب متألمة:

- كيف أخبرك وأنت ترفض ان اذهب هناك. جدتى هى من ربتنى يا عادل ولا أستطيع تركها هكذا وقد بلغ بها المرض بأنها اصبحت مُقعدة ولا تستطيع حتى تناول دوائها، وهى كل ما ترجوه أن أجالسها وأطعمها، أسليها ببعض الحكايا

ضغط كفها الذى مازال يسكن راحته بضعف وهو يقول بعصبيته التى اعتادتها منه عندما يغار بشدة:

- وهل تلوميني، ماذا لو صادف وجود ذاك الحيوان "خالك" هناك ماذا كان سيحدث حينها؟

ارتجافها ذكرته بحينتها عندما عاد إلى بيته ووجدها ترتجف فقال بعنف بعد إدراك متأخر:

- هل كان هناك ذاك اليوم، هل تعرض لك من جديد؟

أنباه اهتزاز كتفيها بوضوح وهى مطرقة برأسها للأسفل تكتم شهقاتها براحتها الأخرى بأنها تبكي بشدة، ولا تستطيع التوقف، هو يعرفها، هى زوجته ويعلم كل خلجة بها، لا تنهار هكذا إلا إذا تعلق الأمر بذاك الخال الحقير، الذى لم تمنعه صلة القرابة من أن يستغل وحدة ويتم ابنة أخته المتوفاة، ويحاول التحرش بها مرة بعد أخرى، إلا إنها كانت تُدافع عن عفتها بضراوة، لا ينكر عادل فى بداية ارتباطه بها أنه

كان مُفاجئًا بعض الشيء من موافقتها السريعة على الزواج ولكن تلك المفاجأة لا تعني شيئًا أمام ذهوله وهي تصارحه بتلك الحقيقة، وترجوه بأن يُعجل بالزفاف، لتخرج من هذا البيت بأسرع وقت، فبالرغم من حبها لجدتها التي ربتها إلا أنها كل يوم تنام مرتعبة مما يُمكن أن يحدث لها في الغد، لذلك منعها بعد أصبحت في بيته من زيارة جدتها وشدد على ذلك، الحالة التي تعانيها الآن تعني بأنها قابلته في ذلك اليوم، ترى ماذا فعل بها؟!.

ترك كفها وقبض على كتفيها وهو يُديرها نحوه قدر استطاعته، هاتفًا من بين أسنانه:

– اقسم بأن أقتله، تكلمي يا رؤى ماذا حدث منه

فلتت منها شهقة ثانية ثم ثالثة وأصابعه تنغرز دون أن يشعر بكتفيها فتولها فقالت وهي تتألم:

– لقد قال لي بأنني الآن ليس لدي ما يمنعني عن قبول عرضه بعد أن تزوجت، وحاول لمسي وأنا خفت، خفت بشدة يا عادل، كانت عيناه دموية مُرعبة، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أضربه على رأسه بزجاجة الماء، فسقط أسفل قدمي مُدرجًا بدماءه، تصورت وقتها أنني قتلته، ولكنه أصيب فقط.

أتمت عبارتها وقد فقدت القدرة على كتم شهقاتها فالتفت نحوهما من يجلسون في المقاعد المجاورة بفضول، ولكنه لم ينتبه إلا لها هي فقط، ترك

كتفيها وضمها إلى صدره بقوة وهو يسبه ويتوعده بالقتل، أنفاسه ملتهبة حارقة والغليان يعلو بصدره وأفكاراً شيطانية توسوس له بالعودة إلى القاهرة وتمزيق قلبه بيديه العاريتين، دفنت رأسها بصدره بقوة وهي تحركها وتقول برفض، مُبللةً سترته بدموعها المنهمرة على قلبه تحرقه:

– لا تفعل يا عادل أرجوك، لا تجعله يأخذك مني، أنت كل ما تبقى لي في الدنيا، أرجوك سامحني أنني ذهبت دون علمك لم أكن أعلم بأنه يتواجد في تلك الساعة، جدتي مريضة وأنا لا أريد إغضابك فماذا أفعل؟

سكت لدقائق طويلة وتركها تُفرغ كل دموعها على صدره وعندما هدأت قال بصوت عميق جدًا، وكأنه آتٍ من عمق بئر سحيق:

– أسامحك حبيبتي، جدتك سأنقلها إلى بيتنا لتقومي برعايتها كما تُحبي، أما ذلك الحقير فلن يفلت من يدي

رفعت رأسها إليه والامتنان يتقافز بعينيها المتورمتين من البكاء، استطاع رسم ابتسامة واهية على شفتيه لطمأنتها ولكنه وجدها تُطرق مرة أخرى برأسها قبل أن تجلد نفسها قائلة:

– ولكن، أنا لا أستحق ما تفعله معي، لقد خدعتك!

أمسك وجهها ورفعه لتنظر إليه، وهو يشعر بأنه لم يسمعها جيدًا:

– ماذا؟!!

أعادت رأسها إلى صدره تحتمي منه به، وهى تقول مُعترفة بجملٍ غير مُترابطة:

- صدقنى أنا لم أكن أقصد، لم أنوِ خداعك، كنت فقط أريد ترك بيت جدتي، كنت أخشى على نفسي لذلك سكت، اليوم الذى رأيتنى فيه للمرة الأولى فى دار الروضة التى أعمل بها وفاتحتنى فى الزواج، أنا علمت بعدها بأنك لم تكن تقصدنى أنا، كنت تقصد رؤى أخرى، غيرى !!

***

النهاية

بدت عبير شاردة جدًا وهى تجمع متعلقاتها من فوق سطح مكتبها بداخل المركز الطبي وقد انتهى وقت عملها في انتظار حضور زوجها الدكتور بلال لتتحدث معه فيما حدث اليوم صباحًا، عندما شاهدت ياسين بجسده المكتنز وقامته القصيرة يقف أمام جهاز التعقيم يجهز أدوات الحجامة ويُعقمها وهو يتحدث إلى نفسه بصوت مسموع كمن يحاول حل شفرة ما، وعندما سألته عما به وهى تتصور بأنها مشكلة جديدة مع زوجته، فاجأها بالقصة التى انتشرت بالحي عما دار في شقة هشام والنصاب الذى كاد أن يودى بحياة والدته وزوجته، والكلام الذى تناقلته جاراتها فيما بينهن عن الحالة التى أصبحت عليها زوجته منذ أن عادت من المشفى بالإضافة إلى مغادرتها قبيل شروق اليوم في حالة يرثى لها، زمت شفتيها باستياء وهى تلقى باللوم على والدة هشام التى نقلت كل ما يحدث في بيت ولدها إلى تلك المدعوة عنبر، من المؤكد أنها بتلك المعلومات التى قامت بتمريرها إلى ذلك النصاب عبدالفتاح ساعدته على إيهامهم بما يريد بسهولة لتحقيق مآربه، ولكن شعورها بالشفقة على المرأة العجوز غلب عليها في النهاية وهاهى تفكر في

زيارتها بالمشفى فلربما كانت تحتاج إلى مُساعدة فى تلك الظروف الغريبة التى يعبرون من خلالها .

زلات طرفات لعرفهم جيدًا جعلن وعيها يطفو من جديد فوق سطح افكارها، راقبت دخوله لحجرتها بتحية مُشبّعة بابتسامة تجيد خصمها بها وحدها، تلك الابتسامة التى انزلقت من عينيه إلى شفتيه فلمت سريعًا أظافر ظلال مشاعر سلبية تحوم حول قلبها، كتفاه العريضتان احتلتا مجال رؤيتها، مما تُجبر نظراتها أن تحط على لحيته المهذبة بعناية، رنا نحوها وهو يُعدل من وضع نظارته الطبية الأنيقة فوق عينيه بحركة اعتيادية وهو يقول:

- لا داعي لكل هذا الإعجاب فى عينيك، فأنا رجل متزوج، للأسف!

مُذ سنوات وهو يستطيع استمالة ضحكاتها رغمًا عنها، قذفته بحقيبتها الجلدية فتلقفها فى الهواء وهو يقترب منها بمرح ويرفع غطاء وجهها مُقبلاً جبهتها فدفعته مُدعية استياءًا كاذب من اقترابه الذى لم يُقس بالمسافات بينهما يومًا، هاتفة بغيظ مُحبب:

- تحسن حظك أننى لستُ فى مزاج جيد هذا اليوم

لم يندهش كثيرا، فهو يعلم أنها بحكم عملها واختلاطها بأنواع مختلفة من صنوف النساء من المُمكن جدًا أن يتعكر صفوها أو تفقد القدرة على الصبر آخر يومها، هو أيضًا بحكم عمله يحدث معه ذلك وأكثر

ولكنه يقذف كل هذا عند قدميها في تلك الدقائق القليلة التي يقضيان فيها بعد عودته من المشفى وبداية عمله في مركز العلاج الطبيعي خاصته، جلس على المقعد المقابل لمكتبها وهو يخلع نظارته عن عينيه مُدلكًا أعلى أنفه وهو يقول ببساطة:

- الأمر يعود إليك حبيبتي، لو العمل هنا يُرهقك فلا داعي منه وتفرغي للأولاد فقط

ثم التفت نحوها متذكرًا أنه لم يسأل عن أطفالهما:

- على ذكر الأولاد، أين هما الآن يا تُرى؟

جلست بدورها على مقعدها الجلدي خلف مكتبها، وتزفر بنعومة قائلة:

- أختي عزة هنا في إجازة ولقد أصرت على اصطحاب الأولاد من الروضة الى بيتها اليوم، ومن المُفترض أن الحق بهم عندها الآن، ولكن حدث أمر غير وجهتي.

أومأ برأسه باهتمام يحثها على التحدث فبدأت تسرد عليه ما أخبرها به ياسين في الصباح، ورغبتها في زيارة أم هشام في المشفى وقد ساءت حالتها كما علمت، ففي كل الأحوال المرأة كانت تحرص على زيارتها بشكل دائم وتتودد إليها وقد أحبتها للغاية رغم عدم رضاها عن بعض من تصرفاتها مع زوجة ولدها الراحلة .

كعادته يفكر قليلًا قبل أن يجيبها عن أمر كهذا، وكعادتها تنتظر قراره الذي لم يكن يومًا ضد رغبتها إلا نادرًا، وأخيرًا أنار لها الضوء الأخضر لتعبر إلى موافقته بسلام ولكنه اشترط أن يصطحبها بنفسه إلى هناك حتى يطمئن عليها، نهض من مجلسه وهو يُشير لها بأن تُسدل غطاء وجهها مجددًا، خرج من الغرفة متوجهًا نحو غرفة الكشف الخاصة به فوجد ياسين يهتم بها ويُرتبها قبل بداية العمل، وطلب منه تأجيل مواعيد المرضى إلى ما بعد صلاة العشاء ليكون لديه متسع من الوقت وهو يصطحب زوجته إلى زيارة أم هشام، أعلن الامتنان في عيني ياسين عن نفسه بوضوح وهو يهتف شاكرًا له بحماس وتقدير.

***

جلست والدة هشام على فراشها الأبيض وقد ارتدت جميع ملابسها مستعدة للخروج من المشفى، وأمامها حقيبتها الزرقاء الكبيرة التي جهزت فيها أغراضها منتظرة مجيء عادل، فهي تعلم بسفر هشام لمقر الشركة وبأن عادل هو من سيصحبها إلى المنزل، عندما أخبرتها المُمرضة بأن ولدها حضر باكرًا جدًا ظنت بأنه كان يريد الاطمئنان عليها قبل سفره، وهاهي الساعات تمر وجدايل أيضًا لم تأتِ.

ضربت الأرض الملساء بعصاها وهي تزفر متململة بجلستها، وهي تستعد للنهوض بنزق، ستخرج وحدها وتعود للمنزل وستحضرهم جميعًا بالعصاة على رؤوسهم حتى تهشمها، طرقات خفيفة جعلتها تكافح

تقدم افكارها العنيفة بالتراجع، تهلل وجهها فجأة وهي ترى عبير تدلف من الباب بحرج بالغ وتُحيها بخفوت، عرفتها بالرغم من غطاء وجهها أو كما تقول لها دائمًا - أستطيع تمييزك من بين مئات المنتقبات

أخبرتها عبير بأن ياسين قص عليها ما حدث لذلك أتت لزيارتها وأن زوجها بلال ينتظر في الخارج، أصرت المرأة على دخول بلال وقد هالها وجوده بالخارج كالمطرود، تركت عبير وخرجت إليه وهي تُقسم عليه أن يدخل ويجلس معهما بالداخل، كان متحرجًا بشدة ولكنه لم يستطع مقاومتها وخصيصًا وهي مُقدمةً على جذبه من ذراعه، فاختار الدخول بكرامته أفضل !.

كل ما قالته لها عبير كانت تعرفه لذلك لم تُعلق إلا بمصمصة شفاها وهي تتحسر على ذكائها الضائع ولكن جملة عبير الأخيرة والتي نقلتها عن ياسين عن خروج جدايل بتلك الهيئة ثم تبعها هشام بهيئة لا تقل عنها تشعُثًا هو ما أثار ريبتها وشرودها من غرابة ما تسمع .

فُتحَ باب الحجرة دون استئذان، وبلا وعيٍ حاضر دلف هشام يحمل دفتر ابنته جنى بيده، وبالرغم من سقوط نظراته على بلال وعبير ولكن إدراكه سقط على والدته فقط وهو يمد لها الدفتر بيديه مؤشرًا بأنامله على العبارة التي جعلته يدور حول نفسه منذ أن قرأها في شقة جدايل قائلاً بصوت مشحون:

- فقدت قدرتي على الفهم، أفهميني أمي، جميعكم خدعتموني أليس كذلك؟!

زفرت والدته بعدم رضا وهى تنهض واقفة مُنحنية الظهر قليلاً وهى تُجيبه زاجرة:

- أنت السبب، رأسك كان كالحجر، رفضت رؤى دون سبب لمجرد أنها كانت تعمل وكأنها وصمة عار بالرغم من أننى أكدت عليها بأنها لن تعود للعمل مُجددًا، أخترت راحتك على مصلحة بناتك، وتناسيت أن أختيار رؤى من الأساس كان لأنها الأقرب إليهما وتعرف كيف تتعامل مع حالتهما، ولكنك فكرت فى راحة بالك فقط .

أنحنى بلال نحو عبير الجالسة بجوار الفراش تشعُر ببلاهة مما تسمع من الحوار الدائر وهمس لها ليرحلا، فالموضوع المُثار عائلى للغاية، بمجرد أن نهضت عبير وهى تستأذن للمغادرة، قبضت المرأة على ذراعها قائلة بعصبية زائدة:

- انتظرى يا دكتورة عبير سأرحل معكما لا أريد البقاء مع هذا المعتوه

عاد إدراك هشام يعمل من جديد على بقية مساحة الحجرة دون والدته والتفت بحدة لم يقصدها نحو عبير وقد كانت بالنسبة له كسفينة

إنقاذ أخته وهو يصارع أمواج بحر يوشك على الهلاك فيه، وهتف وهو يقترب منها خطوة واسعة:

- أنتِ الدكتورة عبير؟، كيف لم أفكر بكِ من قبل وأنا أبحث عنها في كل مكان، أين أجد زوجتي الآن أخبريني؟

تلك الخطوة كانت كفيلة بأن تجعلها مأسورة خلف جسد زوجها الذى وقف أمامها مباشرة واضعًا يده على كتف هشام بخشونة ولسانه ينطق بشراسة أقل حسيسًا من التى انطلقت شرارتها من عينيه:

- اقترب خطوة أخرى وستندم صدقنى !

رفع هشام نظره بدهشة نحو بلال وكأنه لم يلحظه إلا الآن، بينما تدخلت المرأة بينهما وهي تسحب ولدها بعيدًا عن يد بلال، فالوضع لن يكون مُتكافئًا أبدًا، بالإضافة إلى ضيق صدرها الذى شعرت به وقد فاض بها الكيل مما يموج به، يكفى مُداراةً وصمتًا وليفعل ما يفعله لقد تعِبتُ، أبعدته الخطوة التى اقترفها وهتفت غير مبالية بوجود آخرين معهما:

- الدكتورة عبير لا تعلم شيئًا عن جدايل، ألا زلت أعمى البصيرة حتى الآن؟!، أنا بالفعل طلبت منها أن تُرشح لي عروسًا لك ولكنها لم تجد من توافق على ظروفك العائلية، وبما أنك لم ترَ رؤى حتى، وركبت رأسك ورفضتها دون أن تعلم حتى اسمها أضطررت

ان أُسايرك وأخبرتك أن هناك عروسًا أخرى من طرف الدكتورة عبير.

غرز هشام أصابعه المرتعشة بين خصلات شعره بقوة ثم يحرك رأسه يمينًا ويسارًا كأبله لا يفهم ما يُقال له بوضوح، ولكن كيف؟ فتح الدفتر مرة أخرى ونظر لسطوره وهو يهذي بالعبارات الغير مترابطة التى تطحن عقله بلا هواده:

- أمى، هالة تقول فى وصيتها للفتاتين أن رؤى مُعلمتهما غير مُحجبة لذلك أهدتها وشاحها الرمادى لأنه نفس لون عينيها، ورؤى زوجة عادل هى نفسها مُعلمة البنات ولقد كانت غير مُحجبة بالفعل ولكن عينيها سوداء، أنا رأيتها بنفسي عندما ذهب عادل ليراها فى الروضة، وجدايل زوجتى عينيها رمادية ومستديمة على ارتداء حجابها الرمادى، سأجن بالتأكيد !

زفرت والدته بضيق ولكن الحدة خَفُتت فى نبراتها وهى تربت على كتفه بتفهم:

- رؤى زوجة عادل ليست هى رؤى نفسها التى أوصت لها هالة بوشاحها، هى زميلتها وقد كانت تعمل معها بالروضة، حدث خلط بينهما عندما ذهب عادل ليراها، ولو توقفت عن مناداة زوجتك بـ جدايل لحُل الموضوع من تلقاء نفسه .

وكأنها ضغطت قابسًا أحمر كبيرًا في عقله، أضاء بخفوضاء الإدراك المتأخر دافقًا إجابات منطقية لكل أسئلته بتلافيف عقله بقوة وسرعة وليدة. عندما استقبله عمها وقتما ذهب لرؤيتها، حدثه عن مدى ارتباطها بوالدها رحمه الله، ومدى تدليله لها حتى أنه أطلق عليها اسم جدايل كتدليل لها، جدايل اسم جدتها من أبيها وكان ذلك سببًا كافيًا ليجعل والدتها ترفض أن تكتبه في شهادة ميلادها، وأصرت أن يُسجلها باسم رؤى!، ومنذ ذلك الحين والجميع يناديها بـ جدايل إلا والدتها وبعضٌ من زميلاتها، لذلك أحب هو أن يُناديها به ليُشعرها بالألفة تجاهه منذ اللحظة الأولى حتى نسي أو تناسى اسمها المُسجل بالأوراق "رؤى".

لم ينتبه إلى تلك الحقيقة في البداية، اعتبره مجرد تشابه لا أهمية له، ولم يكن له أهمية وقد تزوجها صديقه وانتهى أمرها بالنسبة لها، والدته خدعته بمكر، ولكنها ليست وحدها!

رفع عينيه إلى والدته والغضب يُحدد مقلتيه وسوادهما بخطوط لا تقل سوادًا عن لونهما وهو يهمس من بين أسنانه :

– وبالتأكيد زوجتي الفاضلة وعمها المُهذب وافقا على تلك الخطة، وكنتم تضحكون فيما بينكم على الأحمق الذي صدقكم جميعًا

أزاحت يدها من فوق كتفه سريعًا وكأن لمسته تحرقها واستندت بظهرها بإرهاق يدًا على وجهها وجعل جسد عبير يتحفز تلقائيًا

استعدادًا للسقوط الذى سيحدث بين لحظة وأخرى ولكنها وجدت المرأة تستعيد بعض من قوتها بعد أن تنفست بعمق ثم قالت له:

- يا بني افهم، جدايل زوجتك.

قاطعتها ضحكته العصبية الساخرة وهو يهتف :

- تعنين رؤى زوجتى، أليس كذلك!

عادت تتنفس عميقًا من جديد مُستعينة بعصاها تلقى ثقل جذعها عليها قبل أن ترد بهدوء لا يتناسب مع الضيق الذى يعترى دواخلها:

- نعم رؤى زوجتك، كانت وحيدة جدًا يا ولدى بعد أن فقدت والدتها أيضًا، وعمها وزوجته حياتهما مستقرة خارج مصر، رؤى زوجتك هى من هاتفته وهى تبكي راجية إياه أن يأتى ولو لزيارة قصيرة ليساعدها على نقل والدتها إلى الشقة الجديدة التى أجرتها إحدى جاراتها على الإنتقال إليها وقد سئموا صراخ أمها كل ليلة، لذلك ترك عمها وزوجته أولادهم هناك وجاءوا إليها ولكن للأسف بعد انتقالهم بيوم واحد هربت والدتها عائدة إلى شقتها القديمة وهناك ماتت مُحترقة أعاذنا الله، كانت الفتاة ضائعة تمامًا وبالأخص وهى تعلم بأن عمها وزوجته سيعودان مرة أخرى بعد فترة قصيرة وستصير وحدها تمامًا، أنت وبناتك كنتم آخر أمل لها فى الحياة فماذا كنت تريدنى ان أفعل، أتركها وقد وصتني عليها خالة رحمها الله؟

دون أن يرى وجهها شدد مُسالدًا على كتفها بعد أن أحاطه بذراعه. كان يعلم أنها تبكي في هذه اللحظة تأثرًا بما تقوله المرأة من حكايا عن تلك الرؤى، كم من أبوابٍ مُغلقة يحصُل خلفها ما لا يُمكن تصديقه، منه ما يتسلل من أسفل بابها، ومنه ما يُحكى على العلن، ومنه ما يُؤسَرُ بقلوب تموج به وحدها، قلوبٌ رأت كل شيء، حتى مات فيها كل شيء، تلاطم الحديث العاصف أجبر بلالًا على الخروج من تأملاته وهو يسمع هشام يهتف بدهشة:

- معنى هذا أنها هي من كانت تكتب وتُرسل تلك الرسائل إلى الخالة، ولكن كيف لها بتلك الأسرار، هل خالة تزورها بالفعل، هل أجبرتها، هل اختطفتها كما توعدتني، هل هي في خطر الآن؟ ماذا يحدث لي، كلما حللتُ عقدة تُسرع إلى حياتي أختها؟!

أنهى كلماته وهو يُمسكُ برأسه، يشعر به على حافة الإنهيار، لم تستطع والدته كتم فضولها، سألته بترقب خوفًا من انفجاره عن تلك الرسائل التي يتحدث عنها، ترك جسده ينزلق كورقة في مهب الريح إلى الأرض الباردة مُستندًا بظهره إلى الباب المُغلق، الغليان الذي تضج به عروقه جعله لا يشعر بتلك البرودة القارصة التي بدأت تلف الحجرة أكثر فأكثر كلما غربت الشمس وهو يقص عليها ما أراد أن يُخفيه من قبل، وكلما توغل بين غابات حكاياته كلما تململ بلال في وقفته وهو يناظر عبير وكأنه يسألها النصيحة، الأمر بات مُحرجًا بالنسبة لهما كثيرًا،

هشام يقول أشياء تُسود فيها صفحاتٍ كثار !، لولا انسداد هشام وهو في تلك الحالة لباب الحجرة لسحب زوجته وخرج منها دون أن يلتفت لرفض المرأة وتشبثها بـ «عبير». هذا الزوج المتعب يخز عجبه لا إعجابه، لو كان ذو فطنة ولو قليلاً لما كابد كل تلك المعاناة !.

انتبه في تلك اللحظة على صوت زوجته المشبع بالبكاء وهي تسأل بقلق على رؤى وبجفاء موجه نحو هشام وحده، وكأنها تعرف رؤى منذ سنوات غابرة وتنافح عن قضيتها:

- هل سنجلس هكذا نُضيع في الوقت بأحاديث ليست ذات أهمية، ولا نعلم مصير الانسانة المختفية منذ الصباح وحتى الآن؟

تمتمت والدة هشام وكأنها لا تتعلم أبدًا دروسها:

- كنت على حق عندما ظننت أن روحها تسكن الشقة!

اتسعت عيناها شيئًا فشيئًا وهي تتابع بصدمة:

- معقول، هل من الممكن أن تكون أخذتها معها تحت الأرض؟!

شهقت بصوت مسموع عندما علت طرقات عصبية على باب الحجرة، تحرك بلال مُسرعًا وهو يساعد هشام على نهوض ممسكًا إياه من كتفيه، فتح الباب ودلفت الممرضة على عجلة من أمرها تسألهم الرحيل، فهناك حالة أخرى تنتظر.

***

سرت بعض الهمهمات فى المقعد الخلفى للسيارة بين عبير ووالدة هشام، بينما ولدها يجلس صامتًا بجوار بلال بداخل سيارته، اضطر للموافقة وقد ألح بلال على أن يقلهما بسيارته إلى المنزل، الآن وقد استوت الأمور برأسه أكثر من ذى قبل وبدأ يهدأ ويُفكر بعقلانية مطوحٍ على نفسه يستند برأسه إلى زجاج النافذة المُغلقة بجواره، لا مفر أمامه من استكمال البحث عنها، بل لا مفر من العنوان التى أعطته والدته إياه وهى تقول له بعفوية:

– هذا عنوان شقة رؤى القديمة التى هجرتها بعد أن احترقت فيها والدتها.

عنوان أثار بعض مخاوفه، ذكره بما قرأه من خلال بريد بين الناس، وهى تتحدث عن الشقة وعمن يسكنها من أشباح من كانوا يسكنوها يومًا وهم أحياء، والدتها، والدها، هالة التى تعدها بالشر!، وسؤال حول رؤى يخشى الإجابة عنه منذ أن استقل السيارة، ترى هل مازالت حية؟.

بدأت قطرات الأمطار القليلة تُقبل زجاج السيارة الأمامى وهو يُراقبها وكأنه يحصيها، أخرجه صوت بلال الهادىء من حساباته عندما سمعه يتساءل:

– علمت بأنك حررت محضرًا لذلك النصاب عبد الفتاح، فهل هناك جديد؟

تنحنح هشام ليجلى حنجرته صارفًا أفكاره بعيدًا قليلاً عن عقله الآن:

- المحامى أبلغنى بأن الرجل حُرر ضده محاضر كثيرة من قبل وجاري البحث عنه، حتى عنبر التى لم تظهر سوى بعد أن علمت أن والدتى بخير، عندما قبضوا عليها لم تستطع أن تدلهم على مكان سكن مُحدد له ولازالوا يحتجزونها لديهم حتى الآن.

أوما بلال برأسه، وهو يُحاول فتح أحاديث جانبية مع هشام حتى يصلوا إلى منزله، لقد استطاع أن يقرأ عينيه ونظراته المضطربة ووالدته تمنحه عنوان الشقة المهجورة وتحدثه عنها، لذلك أراد صرف أفكاره لبعض الوقت ليتمالك جأشه ولو قليلاً، ليستطيع المواجهة، لا مواجهة الموقف، بل مواجهة مخاوفه!، فالمخاوف لا قيمة لها دون أن نؤمن بها، ونُصدقها !.

- ياسين جارك فى نفس البناية، أليس كذلك؟

- نعم

ابتسم بلال وهو يُدير عجلة القيادة قائلاً بثقة:

- هذا يؤكد لي أن المحامى الذى تتحدث عنه هو فارس سيف الدين

إلتفت هشام نحوه بابتسامة صغيرة متسائلاً:

- كيف عرفت؟

ضحك بلال بخفة وهو يُجيب ببساطة:

– ياسين يُحب فارس جدًا ويجمع له الزبائن من كل مكان

ابتسامة ضائعة ارتسمت على شفتيه وقد بدا الاهتمام يظهر على نبرات صوته:

– هل تعرف الأستاذ فارس؟

ظهرت التسلية على ملامح بلال وهو يقول بحماس:

– صديقي منذ سنوات، منذ أن كان مُضطرًا على مواجهة الشياطين هو أيضًا، ولكنها كانت شياطين الإنس، وصدقني هؤلاء من يستحقون خوفك بحق، سأحكي لك قصته فيما بعد، بعد أن تنتهي من أشباحك الخاصة.

أنهى كلماته وهو ينظر في المرآة أمامه يُبادل عبير النظرات بابتسامة وهو

في هذه اللحظة كانت والدة هشام تمد يدها واضعة إياها على كتف ولدها من الخلف وهي الأعرف بحالة في تلك اللحظة قائلة:

– سأذهب معك إلى هناك لا تقلق

** شخصيات فارس وبلال وعبير ومهرة أبطال رواية سابقة بعنوان – مع وقف التنفيذ –

حرك هشام رأسه نفيًا وقبل أن يجيب سمع بلال يتدخل قائلاً بحسم:

- لا يا خالة، سأقلك أنت وزوجتى لبيتك وسأذهب أنا مع هشام

ثم وجه حديثه إلى عبير مُذكرًا أياها:

- حبيبتي، لا تنسي أن تهاتفى أختك لتطمئنى على الأولاد وتُعلميها أين أنت

أدار هشام رأسه نحوه بنظرات مُستنكرة، هل يقول لها حبيبتى أمام الناس؟، هكذا ببساطة وكأنه يناديها باسمها !.

أوقف بلال السيارة أمام البناية ولازالت قطرات المطر الخفيفة تداعب وجهه عندما ترجل هشام من السيارة صاحبها فى تلك اللحظة صوت آذان المغرب يصدح من المسجد القريب، دار حول السيارة من الأمام ليواجه بلال الذى ترجل هو الآخر مُوصدًا بابها خلفه، مُستندًا إليه وهو يُراقب خطوات زوجته إلى أن اختفت داخل البناية ثم استدار تجاه هشام واضعًا يده على كتفه وهو يقول بأريحية وكأنه صديق قديم:

- نُصلى المغرب ثم ننطلق إلى هناك، سنجدها إن شاء الله، لا تقلق؟

أومأ هشام موافقًا وهو يشعر بالألفة معه، بينما كان قلبه يُعاتبه مُتسائلاً عن آخر مرة دخل فيها المسجد مُصليًا؟!.

عندما انتهت الصلاة وخرجا من المسجد ركضا إلى السيارة وقد بدأ المطر بارسال زخاته إلى الأرض مُعلنًا عن انتهاء وقت الدعابة ببرق يصحبه رعدٍ شق السماء المُظلمة، كظلمة مخاوفه التى لم تنطفىء نجومها بل تومض بقوة اعتقاده بها.

الشارع المُظلم الذى ولجته السيارة بمساعدة مصابيحها والذى لم يكن خاليًا تمامًا من المارة، لازال البعض يدخلون إلى البنايات فيه جريًا تجنبًا للمطر والبرك التى صنعت لنفسها زوايًا حيوية منه كفخاخٍ للبشر.

أوقف بلال السيارة جانبًا ببطء وحذر إلى جانب السيارات المرصوصة والمُغطاة منها إلى جانب البناية المقصودة تمامًا، ترجلا من السيارة سريعًا قاصدين مدخلها مباشرة قبل أن تبتل ملابسهما بالكامل، الأضواء القادمة من الطابق التالى هى التى كانت تمد غالبية الطابق الأرضى حيث شقة رؤى بالإضاءة، فالمصباح الخاص به مُغطى بالغُبار وإضاءته ضعيفة للغاية، رعشة صدمت أوصاله عندما وقعت نظراته على الشقة المنزوية خلف السُلم قليلاً حيث ظلال الأضواء تقع على جزء منها صانعةً ظلالاً خادعة للنظر، رائحة الفُلفل الحارق مخلوطًا بروائح أخرى مُغلفة بالغُبار تصل إلى أنفهما بشكل مُزعج، تحولت نظرات هشام إلى بلال الذى يقف بجواره يتأمل المشهد بتفاصيله وقال بضياع وكأنه تذكر للتو أن لكل شقة مفتاحًا يخصها:

- كيف سندخل ؟

مط بلال شفتيه وهو يضع يديه فى خاصرته متسائلاً وهو يقيم الباب بنظره:

- ما رأيك، نكسره؟!

بعد ما يقرب من نصف ساعة كان هشام يُمسك بمفتاح الشقة بين أصابعه المُرتعشة وهو يقترب بحذر من الباب مُتحليًا بشجاعة ظاهرية، بينما بلال بجانبه يسانده بنظراته ويومىء له برأسه، ومن خلفهما ببضع خطوات تقف فتحية صاحبة البناية وبجوارها زوجها بعد أن كانت رافضة أن تمنحهما المفتاح خوفًا من خروج اللعنة إلى بقية الطوابق وطوال الدقائق الماضية وهما يتجادلان معها فى محاولة إقناعها ولكن لاجدوى، لولا تدخل زوجها الذى قلق بالفعل على رؤى بعدما علم بأنها غائبة منذ الصباح وزوجها يبحث عنها، وهاهو وبعد معاناة معها يقف بصحبتها خلفهما فى انتظار النتيجة .

دفع هشام الباب بحرص ففتحه على مصراعيه أثناء ما كان بلال يهمس له بتحرج وهو يُفكر بأنها لو كانت بالداخل فبالتاكيد ستكون مُتكشفة ولو قليلاً:

- هل تريد أن تدخل أنت أولاً؟

ابتلع هشام غُصة بحلقه الجاف وعيناه تحاول اختراق الظلام بالداخل، فى محاولة ضعيفة للإجابة ولكنه لم يستطع نطق كلمة واحدة عندما تسلل إلى سمعه همهمات آتية من الداخل، وفجأة ودون

مقدمات، دوت صرخة جعلت فتحية تقفز بين ذراعي زوجها الذى تمتم بالإستعاذة على الفور وهو يتراجع بها خطوة للخلف كرد فعل غريزي، أما هشام فلقد انزلقت حرفيًا كُتلة من الثلج من أعلى ظهره وحتى نهايته وصولاً لقدميه، والبسملة لا تُفارق شفتيه، إلا أن خارجه كان صامدًا كرجل أمامهم دون أن يسمح لقدميه بخذلانه، عندما شاهد بلال يتخذ خطوات ثابتة للداخل تبعه دون تفكير، يداه تتحسس الجدار بترقب فى انتظار شىء ما سيقبض عليه فى أية لحظة، فجأة أُضيىء مصباح الردهة فالتفت ليجد بلال يرفع يده من فوق زر الإضاءة خلف باب الشقة مباشرة ثم قال بخفوت:

- إعتياد أعمال الكهرباء تنفعُ أحيانًا

زفر براحة وهو يدور ببصره بين أركان الشقة وركام الأتربة الذى علا كل شبرٍ منها يُخلخل ظنونه بوجودها هنا من الأساس، فى الاتجاه الآخر غرفة مُحترقٌ جزء من بابها ومتهالك للغاية، عندما نظر بداخلها، حيث الجدران المُحترقة السوداء، شعر بأنه داخل غرفة خُصصت لتحضير الأرواح كما كان يُشاهد فى بعض الأفلام القديمة، لم يُدرك أن لسانه يُتمتم بما يدور بذهنه فى تلك اللحظة إلى عندما سمع بلال يقول مُعقبًا:

- الأرواح التى يقبضها ملك الموت عند انتهاء أجل أصحابها تذهب إلى عالم البرزخ، ولايستطيع أحد إحضارها من هناك

رفع هشام عينيه إليه بصمت يلاحقه إهتزاز مُقلتيه، فتنهد بلال بعمق وهو يُجادل بنظراته عيني هشام المُتشككتين، أصنام الجاهلية هُدِمت بقلوب من كفروا بها قبل سواعدهم، فهل تقدر قلوبنا اليوم على كسر أصنامنا الخاصة؟!

حاد هشام بنظره بعيدًا نحو الممر المؤدى لغرف النوم، لم ينتظر هذه المرة نظرة تشجيعية من بلال، رجولته أبت ذلك، وفكر كما فكر بلال من قبل باحتمالية وجودها بالداخل مُتكشفة، إن كانت موجودة من الأساس، مرت عيناه سريعًا على الغرفة الأولى، فارغة سوى من أثاثها فقط، لفت انتباهه خف منزلي موضوع بعناية فوق الأرضية المُتغبرة أسفل الفراش فى انتظار قدمي صاحبه، سرت قشعريرة فى جسده واستكمل ازدراد ريقه وهو يستكمل سيرة للغرفة الأخيرة، كانت مُغلقة، وقبل أن يمد يده ليتناول مقبضها ويعتصره ألقى نظرة للخلف، وشعوره بتلك الإنقباضة الخلفية يلازمه دومًا فى كل حركة يقوم بها، دفع الباب فجأة وهو يقف على عتبته كما فعل مع باب الشقة ونظرة واحدة إلى الداخل جعلته يهتف بلوعة وهو يراها مُلقاة على الأرض شاحبة الوجه:

- جدايل !

***

انحنت عبير وهى تُطعم الفتاتين وتُداعبهما بينما والدة هشام تجلس أمامها وتناظرها بامتنان شديد، منذ يومين وهى لاتفارقها إلا لساعات

قليلة، طلبت من ياسين تأجيل جميع مواعيدها فى المركز الصحى، وتظل معها هى وأولادها فى بيتها من بعد الظهر وحتى يأتى زوجها ليلاً ليقلها وأولادهما إلى المنزل، زوجها الذى لم يترك هشام منذ أن وجدا رؤى فى شقة عائلتها القديمة مُلقاة أرضًا شاحبة كالأموات، وفى المشفى ازدادت حيرتهما عندما قال الطبيب:

- صحتها جيدة، مجرد هبوط لا أكثر إلا أنها لا تريد التحدث مع أحد !

وعندما دخل هشام إليها فى حجرتها بالمشفى لم تنظر له وظلت عينيها معلقتين فى الفراغ، وحين أمسكها من كتفيها ارتعشت ونفضت يديه بقسوة وكأنه أخرجها من مكان تحبه عنوةً، ولما ناداها باسمها المُحبب:

- جدايل

ظهرت على وجهها ابتسامة لا حياة فيها، ابتسامة تشفي، وتجمدت نظراتها بجفاء داخل عينيه وهى تُحرك شفتيها الباهتتين وتهمس بنبرة خافتة شرسة :

- جديلتك هذه تركتها لـ هالة كما تركت أمى للنار

لم يملك بعدها إلا أن ينصاع لنصيحة بلال عندما قال له:

- زوجك تحتاج إلى مصحة نفسية، أنا أعرف طبيبا نفسيا جيدًا يعمل في واحدة

وتم نقلها إلى المصحة ومن يومها وحتى الآن وهي تخضع لجلسات نفسية لتحديد نوعية مرضها المجهول هذا، ولقد كان من المستحيل تحديد هويته دون أن يعرفوا ما حدث لها بالضبط وهل لها تاريخ مرضي أم لا ؟، كانت الخيوط مُبعثرة، ومهمة الطبيب في جمعها كانت صعبة للغاية، منحه والدته رقم هاتف عمها في الخارج وعندما علم بحالتها وعدهم بالحضور السريع قدر ما يستطيع .

رفعت والدة هشام رأسها التي كانت مُستندة بها على رأس عصاها وهي تقول موجهة حديثها نحو عبير مقاطعة حديثها الذي كان من طرف واحد مع الطفلتين:

- لا أعرف كيف أشكرك انت وزوجك يا ابنتي على كل ما فعلتماه معنا

أرسلت عبير تنهيدة ناعمة وهي تلتفت نحو والدة هشام وتُجيب وكأنها لم تسمع شكرها الذي تكرر كثيرا على سمعها منذ أن حضرت صباح اليوم:

- خالتي، جنى و لجين تحتاجان إلى بيئة مختلفة، أشعر أنهما منطويتان أكثر من اللازم، هما في حاجة للاختلاط أكثر بأطفال، الروضة مهمة بالطبع ولكنها لا تكفي.

زمت المرأة شفتيها وهى تتأوه بيأس قائلة:

- النصيب يابنتى ماذا نفعل، ليس لدينا فى أسرتنا أطفال فى عمرهما، أبناء عمتها الوحيدة كِبار، وكذلك أبناء أخوالها، بالإضافة إلى أن العلاقات لم تكن تسمح بالزيارات من الأساس

نهضت عبير جالسة بجوارها وهى تربت على كتفها مُقترحة بجدية:

- مارأيك يا خالتى، لقد تحدثت مع مُهرة صديقتى عنهما وهى طلبت مني أن أصطحبهما لزيارتها بعض الوقت يوميًا

- هل هى طبيبة تخاطب أو ماشابه؟

قالت عبير وهى تُلوح بيدها بحماس مبتسمة:

- أكثر من هذا، مُهرة لديها طاقة لا تنفد مع الأطفال، أطفال الحى لا يُغادرون بيتها، إلا إذا حضر زوجها من عمله أو طردتهم هى لتستذكر دروسها فهى لازالت طالبة جامعية .

صمتت والدة هشام لتفكر فى الأمر، وعيناها مُعلقة بالطفلتين الجالستين بهدوء لا يتناسب مع أعمارهما فى هذا السن، ثم أومأت برأسها موافقة لها، ولم لا، ربما تتغير نفسيتهما عندما يعيشان بعض أجواء المرح لبعض الوقت فى بيئة أخرى صحية، بعيدًا عما يُعانونه جميعًا هذه الأيام .

***

جلس عمها أمام الطبيب المُعالج، هو القريب الوحيد لها، هو فقط من يعلم عنها ما لم يعلمه غيره، حمد الله أنه استطاع الحصول على مقعد فى الطائرة المتوجهة إلى القاهرة فى اليوم التالى مباشرة من مكالمة هشام له، وهاهو الآن يجلس برزانة أمام طبيبها وساعده يرقد بأريحية فوق حافة مكتبه وهو يجيب عن أسئلة الطبيب بصدق:

- نعم، بالرغم من تواجدى خارج البلاد بصفة مستمرة نظرًا لظروف عملى واستقرار أولادى فى دراستهم هناك إلا أننى كنت أتواصل هاتفيًا كثيرًا مع أخى رحمه الله وأعلم الكثير عنهم، والدتها رحمها الله منذ أن تزوجها أخى وهى تعانى من مرض الوسواس القهرى، وعندما حاول أخى أن يعرضها على طبيب رفضت بشدة واتهمته بأنه يريد وضعها بمشفى الأمراض العقلية، وقد كان رحمه الله يُحبها بشدة لذلك قرر أن يُعالجها بنفسه.

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه فى حقها دون قصد، فبعد أن بلغت جدايل الخامسة عشر من عمرها زادت الوساوس لدى والدتها، بدأت تكره ابنتها وتقول بأنها تريد قتلها وهى نائمة، كانت تكره اسم جدايل بشدة ليس لأنه اسم حماتها فقط بل لأنه كان اسم التدليل الذى أصبح وكأنه هو الاسم الرسمى لرؤى، الاسم وحده كافٍ ليجعلها تنزعج حتى بدأت تُفصح عن وساوسها بوجه رؤى وتقول لها دومًا بأنها ستقتلها وبأنها تكرهها لأنها دميمة وعينيها رمادية تُشبه عيون الأموات، وبالرغم

من أن رؤى ليست دميمة على الإطلاق إلا أن معاملتها كدميمة جعلها تعتقد ذلك بل وتخاف من لون عينيها المميز أيضاً

كان خطئي أنا، فقد رأيت حالتها تسوء بعد موت أخي رحمه الله ولم أفعل شيئاً لها أو للفتاة المسكينة. بعد أن انتهى العزاء ذهبت إليهما لأودعهما قبل سفرى وسمعتها تشتمها بكلمات بذيئة وتتهمها بأنها قاتلة والدها، وبالرغم من ذلك سافرت وتركتهما وتخليت عن مسؤوليتهما بدعوى أن هاتفي معهما لو احتاجاني بشيء ضروري سأكون عندهما في اليوم التالي. بعد أشهر قليلة هاتفتني جدايل و..

قاطعه الطبيب الذي كان يُدون بعض الملحوظات في دفتر خاص قائلاً بتنبيه:

- من فضلك، لا أحد يُناديها بـ جدايل بعد الآن. من الواضح أن لديها إشكال مع هذا الاسم

أومأ له عمها بالموافقة دون أن يُعلق فأشار له الطبيب بأن يستكمل بما يعرفه عنها فقال مُردفاً:

- بعد أشهر قليلة هاتفتني رؤى وطلبت مني الحضور بشكل ضروري لأن والدتها حالها تبدل من سيء إلى أسوء والجيران يُريدون طردهما من الشقة لأن والدتها كانت تصرخ طوال الوقت فكانت تُفزع أطفالهم، وقالت لي وقتها بأن جارة لها لا أذكر اسمها منحتها شقة أخرى بالإيجار في مكان قريب من شقتها القديمة

ولكن والدها ترفض الرحيل وترك الشقة. تأخرت فى الحضور أسبوعًا كاملًا وعندما وصلت كانت والدها حاولت أن تحرق نفسها ولكن رؤى منعتها فى اللحظة الأخيرة وسمعتها تشتمها ثانية ولكن هذه المرة كان سبًا مؤذيًا للغاية حتى أن رؤى انهارت فى بكاء شديد وهى تقول " ليتنى تركتك للموت ".

فى نفس اليوم اقترحت على رؤى أننا يجب علينا البحث لها عن مشفى أو مصحة للعلاج بعد أن تنتقل إلى الشقة الجديدة ورؤى وافقتنى على اقتراحى، وبالفعل أجبرتها بالقوة على ترك الشقة وذهبت بها إلى الشقة الجديدة. فى نفس الليلة استيقظت فزعًا على صوت انغلاق قوى لباب الشقة. بحثت عنهما فلم أجدهما، فتوقعت أن والدها هربت وهى لحقت بها. ذهبت فى إثرهما بعد أقل من عشر دقائق فوجدت الجيران مجتمعون أمام البناية وبعض من الرجال يحاولون كسر الباب والدخان ينسل من أسفله بكثرة، وبعد كسره وجدنا والدتها متفحمة بالكامل فى غرفة المكتب و رؤى تقف فى الردهة فى حالة صدمة وانهيار، وسقطت بين ذراعى بمجرد أن لمست كتفها.

أنهى كلماته وهو يحرك رأسه بدهشة معلقًا:

- هل تعلم يا دكتور أن غرفة المكتب كان بابها مفتوحًا على مصراعيه وبالرغم من تخبط المرأة وهى تحترق إلا أنها لم تخرج منه

وضع الطبيب قلمه فوق الدفتر وهو يسأل باهتمام:

- لماذا تقول رؤى إنها قتلت أمها، هل وجهت لها الشرطة أي اتهام أو ما شابه؟

حرك عمها رأسه نفيًا وهو يميل للأمام قليلاً ويجيب قائلاً:

- الجيران فى البناية المقابلة قالوا بأنهم رأوا النيران من نافذة غرفة المكتب قبل أن تصل رؤى بدقائق

أغلق الطبيب دفتره وهو يستند إلى سطح المكتب بمرفقيه وهو يقول بجدية:

- سنحتاجك هنا معنا لبعض الوقت

ظهر عدم الارتياح على وجه الرجل ومشاعره تتخبط بين الواجب وعمله وأسرته فى الخارج، ليس لديه الكثير من الوقت، يومان آخران وسيضطر للعودة، قطع أفكاره طرقات على الباب من الخارج يعقبها دخول هشام بملامح لهفة مُتوقةً إلى أخبار جيدة، حياه الطبيب وهو يفتح دفتره قائلاً:

- يبدو أننى سأعتمد عليك وحدك يا أستاذ هشام فمن الواضح أن عمها ليس لديه الكثير من الوقت

ثلاث نظرات تقارعن فيما بين أعينهم بين ثلاثتهم فقط ..

نظرة للخذلان ونظرة للأمل ونظرة للمجهول !

خلال الأيام السابقة تغيب عادل ليوم واحد فقط، أنهى فيه انتقال جدة زوجته إلى بيته وفعل ما كان ينتويه بخالها الحقير ولم يتركه من قبضته إلا وهو كاره للعالم وللنساء خاصة، ثم عاد للعمل بعد ذلك ليتولى أمر غياب هشام عن العمل أثناء انشغاله مع زوجته والأطباء والذهاب للمصحة النفسية كل يوم وهو يقوم بعمله بدلاً عنه. وقد قص عليه عادل ما قالته له رؤى زوجته في القطار، وبأنها قالت من بين اعترافاتها المتوالية بأن والدة هشام علمت بالخلط الذى حدث بينهما وأخبرت به جدايل، وتكتم الثلاثة الأمر فيما بينهم دون اتفاق حقيقي ولذلك ظهر الشحوب والإرتباك عليهما عندما ذهب هشام لزيارة عادل في منزله وتقابلت جدايل مع رؤى زوجة عادل للمرة الأولى منذ زواجهم، وكان تصرفًا ارتجاليًا من كليهما أن يظهرا وكأنهما تتعارفان للمرة الأولى، وعندما اختلتا ببعضهما في الغرفة الداخلية حدث أول اتفاق حقيقي بينهما على ألا تخبر كل منهما زوجها بما حدث وليبقى السر سرًا للأبد ما دام إفشاءه سيُسبب ضررًا للجميع.

***

أستطاع الطبيب أخيرًا أن يجعلها تثق به وتتحدث إليه عما ترى وتسمع والأشياء التى تتراءى لها من دون من حولها، كان حديثها هو الخيط الأخير والذى استطاع من خلاله الطبيب ربط جميع الأحداث ببعضها البعض وإعطاء تشخيص نهائي لحالتها المرضية، وبداية علاجها

بشكلٍ صحيح، حينها حضر هشام في الموعد الذي حدده له الطبيب سابقًا وجلس إليه وبدأ يشرح له حالتها بشكل مُبسط يستطيع أن يفهمه وقال:

- زوجتك لديها حالة فصام، ومريض الفصام يُعاني من نوبات هلاوس وهذيان وضلالات تفصله عن الواقع تمامًا وتجعله مؤمنًا جدًا بما يرى ويسمع من أشياء عجيبة وغير واقعية، كأن يُقابل أناسًا غير موجودين على الإطلاق ويتحدث إليهم، ويكون مُقتنعًا بما يقولونه له، حتى لو قالوا له بأنه نبي أو رسول.

مسد هشام رأسه ثم جعل يناظر الطبيب بنظرات ضائعة يتكسر عندها الإدراك وكأنه لم يفهم ولو كلمة واحدة مما قال وهو يقول:

- لا أفهم، متى حدث لها هذا؟!، إنها كانت بخير وطبيعية جدًا، أنا أعرف أن الذي يُصاب بهذا المرض يكون له شخصيات متعددة ويتقمصها وأنا لم ألحظ شيئًا من هذا!

ابتسم الطبيب ابتسامة من كان يتوقع سؤالاً كهذا وهو يُضيف موضحًا:

- ما تتحدث عنه يُسمى الانفصام أو تعدد الشخصيات وهذا مرض مختلف عن مرض الفصام الذي تعاني منه زوجتك، مريض الفصام لا تتعدد شخصياته هو فقط يعيش في ضلالاته وهلاوسه،

ولو تُرك بدون علاج ستتفاقم حالته ومن الممكن ان يؤذي نفسه و من حوله أيضًا .

غرز هشام أصابع يديه في جانبي رأسه حتى إلتقيا من خلفها واستند بظهره للمقعد وهو ينظر للطبيب الذى ادرك محاولات هشام للإستيعاب فعدل من وضع نظارته فوق عينيه وهو يشرح أكثر قائلاً:

- مما سمعته عن والدة زوجتك يتضح لي بأنها كانت تعاني من هذا المرض، والضلالات التي كانت تعاني منها كانت تجبرها على كُره ابنتها وتقول لها دائمًا بأنها ستقتلها لذلك كانت تردد هذه الكلمة دائمًا على مسامع رؤى منذ سنوات، وعندما مات أبوها أمام عينيها ظلت والدتها تُقحم بعقلها أنها قتلت والدها، وبدأ الوسواس القهرى عند زوجتك بتلك الفكرة، أنها قتلت والدها، وكانت والدتها تُغذى المرض فيها بتلك الكلمات حتى هربت من الشقة الجديدة وذهبت للشقة القديمة لتحرق نفسها هناك وعندما لحقت بها رؤى ورأتها وهى تحترق وتموت حدثت لها صدمة عصبية ووقفت مكانها ولم تتحرك، وأنا على يقين من أن الضلالات بدأت تستفحل أكثر في تلك اللحظة وتقنعها بأنها قتلت والدتها بالفعل لأنها تركتها تموت رغمًا عنها ولم تتدخل لإنقاذها بالرغم من أنها كانت مُصابة بصدمة وقتها، أتعلم أنها حكت لي بأنها رأت هالة في القبر وهى توصيها على ابنتها؟

رفع هشام رأسه متشككًا وقد قطب بين حاجبيه بشدة فأومأ الطبيب مُردفًا:

- أكاد أجزم أنها كانت أول نوبة هلاوس تمر بها، وبداخلها كانت على يقين أن سبب انقطاع هالة عن زيارتها المتوالية في الروضة هو موتها.

- وهل كانت هالة رحمها الله تزورها دائمًا؟!

- قالت بأنهما كانتا تلتقيان بشكل مُستمر، وفي كل مرة كانت هالة تقصص معها بعض من همومها القديمة وكانت رحمها الله توصيها بأن تُبقيها سرًا بينهما فقط. مُعظمها كانت أشياء تخصك يا أستاذ هشام ولكنها كانت تعدها بأنك ستتغير وستعاملها بأفضل مما كنت تتعامل مع هالة، لأنك لم تكن تحبها، وفي أحد هذه اللقاءات قالت لها هالة بأنها كانت تنوي بعد أن علمت رحمها الله بإصابتها بذلك المرض الخبيث إرسال حكايتها لتريد " بين الناس " لبعض الأزواج، ولكنها تراجعت خشية أن تقرأها فتجرحك الكلمات!

أطرق هشام برأسه وذكرياته القريبة والبعيدة تتناطحان في مدارٍ ثابت، هكذا إذن علمت رؤى تلك الأسرار التي قرأها في المجلة، وإلى هذا الحد كانت هالة رحمها الله كانت واثقة من أنه سيُحب رؤى، ولم لا وهي بنفسها كانت تكرر تلك الجملة دائمًا عندما يتشاجرا، بأنه لم يُحبها

ولن يشعر بالحب إلا مع غيرها، كان بداخلها ما يهمس لها بأنها ليست أهلاً للحب في هذه الدنيا، إذن فلا وجود لشيء يسمى شبح هالة أو روحها عادت لتنتقم ممن أذوها وهي حية، جميع ما حدث كان من صنع مرض رؤى النفسي وخيالاتها الضالة!.

نهض الطبيب من خلف مكتبه والتف حوله حتى وقف خلف مقعد هشام مباشرة ثم وضع كفه على كتفه من الخلف وهو يكاد يسمع ضجيج أفكاره في تلك اللحظة ثم قال:

- رؤى كان لديها استعداد وراثي للمرض، ارتبطت بهالة للغاية وعاشت ألمها بكل جوارحها حتى أن جزء في زاوية ما بقلبها حقد عليك لأنك كنت السبب الرئيسي من وجهة نظرها في كل الألم الذي تراه مُتجسدًا في هالة، تلك الزاوية المُظلمة أنت غذيتها عندما رفضتها، ذلك الرفض أكد بداخلها ما كانت تزرعه والدتها بأنها مرفوضة ودميمة، الصراع الحقيقي بداخلها بدأ عندما رأيتها في شقتها الجديدة وأعجبتك وبدأت تتودد إليها، لم تكن تناديها سوى بجدايل، شعرت بأنها تأخذ شيئًا كانت هالة محرومة منه وتبكي لأجله، وبداخلها كرهت جدايل!، نعم كرهت هذا الجزء من شخصيتها، الجزء المحبوب الذي سطا على شيء ليس له، وأعتقد أن بداية هذا الكره بدأ في ليلة زفافكما عندما جسدت لها ضلالاتها صورة هالة وهي تبكي في المرآة!.

التفت هشام إليه وهو يتذكر تلك الذكرى التى لسعته للتو بمجرد ان تكلم الطبيب عنها، يتذكر جيدًا الرعب الذى عاشه فى تلك الليلة بسبب الفزع الذى ظهر على وجهها وهى ترتد إلى الخلف وتصرخ مُشيرة للمرآة، فهل كانت تُمثل قاصدة إرعابه؟!، نهض واقفًا بحدة وهو يتكلم بما اعتمل بصدره مُتسائلاً:

- هل كانت تعرف ما تفعله؟

سار الطبيب بخطوات رتيبة حتى وصل للمقعد المقابل له خلف المكتب وجلس بهدوء، كان ينتظر هذا السؤال من البداية، نفس السؤال الذى يتكرر على مسامعه كلما واجه حالة مُشابهة، فى كل مرة شيئًا ما بداخله يُخبره بأن التساؤل ليس بريئًا او فضوليًا، بقدر ماهو استفهام لتحديد المشاعر التى سيشعرون به نحو مريضهم، هل سيكرهونه لإدراكه ما يفعل أم سيشفقون عليه لمرضه الذى نزع عنه التحكم، ألا يكفى ما يُعانى منه، ليجعلهم يتفكرون أكثر فى الأسباب التى أدت به إلى هذه الحالة، أم كل المهم فى تلك اللحظة معرفة مدى مسؤوليته عما يحدث، مثلهم مثل القضاة ليتم إصدار الحكم على أساس التقرير الطبى؟!، عندها شرد فى قول احدى زميلاته الطبيبات لما كان يُناقشها عن مدى تعاون أهل المريض معها فقالت له مُجيبة تساؤله " لا يهمهم ان يُخرجوه من ظُلمته، بقدر ما يهتمون بمدى مسؤوليته عن

إسدال الستائر السوداء" ، رفع عينيه إلى هشام الواقف أمامه بشيء من التحفز وقال مُجيبًا وهو ينظر لعينيه بعمق وتركيز :

- هل تستطيع أن تشعر يا أستاذ هشام بمعنى أن صوتًا ما يظل يهمس في عقلك ليل نهار بأنك سارق !، بأنك قاتل، بأنك تأكل فاكهة محرمة !، ولابد وأن تتعذب بها وتخرج من جسدك !،هل تستطيع الشعور بمشاعر المريض عندما يرى وحده أشخاصًا وهمية يدورون من حوله في كل مكان يأمرونه بشيء ويقنعونه بتنفيذه، حتى لو هذا الشيء هو التخلص من حياته !، إذا استطعت الشعور بذلك فوقتها ستعلم الإجابة الصحيحة .

***

خرج هشام من حجرة الطبيب بعد قليل من المناقشات الأخرى عن حالتها ودوره هو في الأيام المقبلة، وقد توقف عقله عن طرح الأسئلة، وبدأ يأخذ منحنى آخر عن كيفية إخراجها مما هي فيه، وبداخله يقين بأنه هو المسؤول الوحيد، لابد وأن يتخلص من تلك النظرة الضيقة التي أهلكت الماضي وكانت في طريقها لسحق الحاضر أيضًا، عندما وصل إلى حديقة المصحة النفسية وجد بلال ينتظره هناك، وبمجرد أن رآه قادمًا نهض واقفًا واقترب منه يربت على كتفه متسائلاً عن حالتها وهل استطاع الطبيب تشخيصها والإلمام بها أم لا، جلس هشام إلى الأريكة

الخشبية بجواره وهو ينظر إلى المساحة الخضراء أمامه تحيًا بضمير معذب:

– زوجتي هالة رحمها الله كانت تقول لي دومًا والعبرة تخنقها بأني سأحب من بعدها وسأتعذب بهذا الحب مثلما شقيت هي بحبي، الآن شعرت للمرة الأولى بما كانت تشعر هي به رحمها الله

جلس بلال بجواره وهو يلتفت بجسده كلية تجاهه قائلًا:

– من الجيد أن نتعلم من أخطائنا السابقة ونتخذها زادًا لحاضرنا ومستقبلنا، لا أن نقتل أنفسنا بها، والدتك قالت لي ما رأته من بشريات على وجه زوجتك الراحلة أثناء تغسيلها ولو كان الأمر كذلك فاعلم أنها الآن منعمة وقد نسيت كل أذى لحق بها في الدنيا، وكأنها لم ترى شرًا قط في حياتها، هكذا هي أرواح المؤمنين.

مال هشام بجذعه للأمام وقد ارتسمت ابتسامة تلقائية على وجهه وهو يقول مُستبشرًا:

– هالة في أيامها الأخيرة لم تكن تترك ليلة إلا قامت فيها تُصلي حتى تتعب وتنام في مكانها، عندما حملت نعشها كانت أخف ما يكون ورائحتها كانت طيبة للغاية لكنني وقتها كنت مشغول بمسؤوليتي الجديدة فلم أنتبه إلى كل تلك العلامات الرائعة

ابتسم ساخرًا من نفسه وهو يُعقب على حديثه مُتابعًا:

- الطبيب قال لي أنها كانت في منتهى الذكاء عندما كتبت لي في غاية وصيتها

" احذر غضبي " كانت تخشى على الفتاتين مني فكتبتها على سبيل التحذير وهي موقنة بأنني سأتوقف عندها كثيرا، تصور يا دكتور بلال، أنا بالفعل صدقت أن روحها عادت لتنتقم مني ومن زوجتي ووالدتي .

تبسم بلال بدوره مُستندا إلى ظهر الأريكة مُكتفا ذراعيه فوق صدره وقال:

- ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان عندما يموت وتقبض نفسه تصعد بها ملائكة الموت إلى السماء ولا تهبط بها إلا عندما يدخل جسده القبر، فتعاد روحه إلى جسده بكيفية لا يعلمها إلا الله، وتجلسه الملائكة لتسئل عن عمله ودينه ونبيه، لو كان خيرا فستصبح روحه مُنعمة، وتلك الروح الطيبة المُنعمة لا تعود لتنتقم يا هشام، بل أكثر ما تستطيعه هو أن تأتي في منام مُستبشرة تُبشر أحبائها بالخير، أما إذا كانت روح فاسق والعياذ بالله أو عاصي فروحه مُقيدة في شغل بعذابها، كما هو السجين المُعذب لا يستطيع فكاكا، والاثنان في عالم البرزخ حتى قيام الساعة، وما نسمعه من حكايا حول رؤية روح أو شبح فلان الذي مات فهو إما أن يكون مجرد تخيلات أو أن الجن تشكل في صورة ذلك الشخص لأي سبب كان، وهذا الأخير حله بسيط

للغاية، سورة البقرة وينتهي كل شيء، لكن لابد أن نؤمن بذلك لا أن نفعلها على سبيل التجربة .

غلف حديثهما الهادىء المُتأمل انسياب زقزقة العصافير المُتناغمة بينهما وقد سطعت أشعة الشمس فى ذلك اليوم بالرغم من برودته التى تُعلن عن رحيل فصل المطر بكل ما فيه من شجن ووجع، تاركًا ذكريات دافئة لا يمكن محوها .

تنفس هشام بعمق قبل أن يُحرك رأسه مؤكدًا وهو يتذكر حديث صديقه عادل عن سورة البقرة، أدرك الآن لماذا لم يكن يحصد ثمارها، لأن كل ما كانت تراه رؤى هو محض عقلها فقط !، تغضنت زوايا عينيه عن ابتسامة حزينة وهو يتذكر كل الليالي التى جافاه النوم بها وهو يشعر بها حوله، وينسب لها كل فعل غامض مر به، حتى المرأة العجوز فى المتجر، تبًا للوهم !

– ألم تخشَ على نفسك يا دكتور ونحن نقف على باب الشقة ونفتحها؟

التفت إليه بلال بابتسامة مُتعجبًا من سؤاله المُتأخر جدًا، رفع حاجبيه بدهشة وهو يجيبه ملوحًا بيده ببساطة:

– ألم تسمعنى ونحن فى السيارة قبل المغرب وأنا أُهمهم بأذكار المساء كاملة وآية الكُرسي؟!، ثم أننا كنا على وضوء وقد صلينا المغرب فى المسجد فممن أخشى إذن؟!

تنحنح هشام بحرج وهو لا يعلم بماذا يُجيب. لقد كان وقتها في عالم آخر يحارب مخاوفه وقلقه من كل شيء، فنهض واقفًا ليرحل معتذرًا، وعندما عرض عليه بلال أن يقله إلى حيث يشاء بسيارته، رفض شاكرًا إياه فهو يريد أن يسير وحده قليلاً، ليُحاسب نفسه ويضع يده على مواطن الزلل فيها .

سار بطيئًا وهو يتأمل الطريق المُعبد أمامه وكلمات الطبيب الأخيرة تُخلخل ثوابت ذكرياته عن زوجته وتتغلغل به في انسالة أخرى لم يكن يعلم عنها كل شيء، كيف يمكن لامرأة أن تكره جزء من شخصيتها؟!، الجزء الذي حظي بحب والدها وكرهته والدتها، ثم حظي بحب هشام وتقبل والدته فلم لا تكرهه هالة؟ لابد وأنها كرهته ولابد وأنها تريد الانتقام مثل والدتها تمامًا !، جدايل تلك انتزعت كل شيء وسرقته من رؤى ثم من هالة فلابد وأن تختفي، أو ربما تموت !، هكذا قالت للطبيب وهي تعاني إحدى النوبات بينما هو يستدرجها، وهكذا حاول الطبيب شرح حالة رؤى له بكل ما يستطيع تبسيطه من معلومات عما يعتمل بوجدانها، لن يدفن رأسه في الرمال كالسابق، سيقف بجوارها حتى تُشفى وتخرج من المصحة وقد تصالحت مع نفسها قبل أن تتصالح مع من حولها، ولكن هذا لايكفي، لابد وأن يقوم بالفعل ولو لمرة واحدة، لا أن تكون كل تصرفاته مجرد، ردود أفعال !.

***

بضعة أشهر أخرى خضعت رؤى خلالها للعلاج الدوائي والجلسات المكثفة، منع عنها الطبيب الزيارات لتخلي ذهنها من كل الفعالات متخبطة من الممكن أن تتعرض لها إذا رأت هشام أمامها، لم تكن الجلسات بنزهة خفيفة أو مجرد حكايات فهي في الأصل لم تكن تعترف بأنها مريضة وبأن كل ما عاشته مع هالة بعد الموت كان هلاوس وضلالات، وأن كل ما رأته في شقتها المهجورة كان من صنع عقلها، رفضت وقاومت ورفضت الحديث بل ورفضت أن تفتح عينيها أثناء الجلسات وازدادت وتيرة النوبات، لذلك أصر الطبيب على بقاءها في المصحة وعدم خروجها حتى تبدأ تتعرف على مرضها، فلو أدركته على حقيقته لخطت خطوة كبيرة في طريق علاجه، وكانت الأشهر الماضية كفيلة بذلك، استطاعت أن تفهم ماهية مرضها، طبيعته وطريقة التعامل مع نوباته وهلاوسه، لازالت تذكر الصفعة التي سقطت على وجهها عندما كانت بشقتها وسمعت الباب الخارجي يفتح، وقتها كانت ترى هالة تُعذب جدايل، ولكن الآن أدركت أن تلك الصفعة كانت من يدها هي، وقد سقطت على وجهها هي أيضا، وعندما بدأت ترى الأمور من منظور مختلف سمح الطبيب لها بالزيارة، وكان أول زائر لها هو هشام، كان يحمل لها مُفاجأتان، اختار أن يمنحها إياهما في نهاية الزيارة لتكون خاتمتها سعيدة لها .

استقبلته ببرود في حديقة المصحة الصغيرة، حتى أنها لم تبتسم لعينيه وهو مُقبل عليها بلهفة وشوق، كتفت يديها فوق صدرها بينما يمد هو يده ليصافحها، تجاهلت يده ونظرت في الإتجاه الآخر وهي تقول بجفاء:

- لماذا لم تحضر معك جنى و لُجين، لقد اشتقت إليهما

جلس على مسافة غير قريبة منها كما نبهه طبيبها من قبل وقال بابتسامة:

- وهما أيضًا اشتاقا لكِ للغاية، ستريهما في الزيارة القادمة بإذن الله

صمتا ولكن الكون لم يسكت، النسائم الباردة كانت تحوم حولهما تلمس دفء أنفاسهما، وأصواتٍ قريبة مختلطة تتكسر أمواجها في المساحة الشاغرة بينهما بدوى صامت كصمتهما الظاهري فقط، بينما هو لايجرؤ على الخطو فوقه أو تجاوزه، حتى استطاع إجبار نفسه على الخروج من خلف ذلك الصمت الساتر الذى يحتمي به، والذى تشققت قشرته الخارجية وصار يتهاوى بعد أن قال لها بخفوت:

- سامحيني، أنا لم أشعر بكِ كفاية

التفت إليه دفعة واحدة بحركة حادة وصدرها يكتم أنفاسه رغمًا عنها بينما تتكلم من بين أسنانها بغضب خافت، يكاد يصل إلى الهمس:

- أسامحك ا، ومن أنا لأسامحك، أنا حية، أعيش، أتنفس، لي إرادة القبول والرفض، أما من تستحق طلب السماح الحقيقي منها،

ميتة، لا إرادة لها، تحت التراب، فلا هى تملك ان تُسامحك وترتاح، ولا هى تملك أن ترفضك وتُحيل حياتك إلى جحيم، ذهبت إلى ربها بألمها ووجعها الذى كنت أنت السبب فيه، بينما أنت تعيش حياتك وتتزوج وتُحب وتسعد، وتنساها .

رفعت يدها وهي تُشير إلى صدرها هامسة بحقد لا تعلم إلى من هو موجه فى تلك اللحظة لنفسها أم له أم للاثنين معًا:

- تتزوج من أخرى، تُحبها كما لم تحب هالة، تقول لها مالم تقله يومًا لهالة، تحميها وتُساعدها وتُسعدها وتفهمها كما لم تفعل مع هالة، أخرى سارقة، تُحب دومًا أن تأخذ ما ليس لها، تنعم به بأنانية بينما من تستحقه تصرخ وتصرخ وتصرخ ولا أحد يسمعها .

الكلمات الأخيرة خرجت عن حدود الهتاف، خرجت من حلقها بصراخ متألم يتلوى كعواء حيوان يحتضر، صراخها لفت الأنظار ولاحظ هشام الطبيب مُقدمٌ عليهما بخطوات سريعة وقد كان يُراقب الوضع من قريب، وعندما وقف بجوارها قال لها مُعاتبًا:

- ألم نتفق على أن نكون هادئين اليوم

شردت قليلاً قبل تقول بخفوت وهى تحيد بنظراتها عنهما:

- أريد أن أصعد لغرفتى

كاد هشام أن يناديها بحذايل وهى تستدير لتنصرف ولكنه تذكر ما قاله الطبيب بأن لا يفعل، ليس قبل أن تتصالح مع ذلك الاسم مجددًا، فناداها على الفور قبل أن تبتعد وهو يحث الخطوت نحوها:

– رؤى، لازال هناك شيئًا هامًا أود قوله لكِ

حثها الطبيب على النظر إليه وعندما التقت عيناهما قال بحماس:

– لقد راسلت الأستاذ عبد الخالق مروان وهو وافق على مقابلتى، التقينا منذ أيام وتحدثنا عنكِ

نظرت له بتحفز ثم تبادلت النظرات مع طبيبها قبل أن تقول بترقب:

– عني أنا ؟!

أومأ برأسه والحماس لايزال يشوب نظرته ونبرة صوته وهو يجيبها:

– الرجل كان فى الأصل يبحث عن عنوانك أو شيء يتواصل به معكِ، وعندما علم بأنى زوجك رحب بمقابلتى جدًا، هو مُعجب جدًا بأسلوبك فى الكتابة إليه ويقول بأنك موهوبة ويريد التحدث معكِ شخصيًا، فهل تسمحين له بأن يُراسلك؟

اختلط الترقب الذى كان يكسو ملامحها بشكٍ وتكذيب لكل كلمة قالها فالتفت الطبيب نحوها وقال مؤكدًا لحديث هشام:

- حقيقي يا رؤى، والأستاذ عبد الخالق هاتفنى ليطمئن على حالتك وهو سعيد جدًا بتقدمك فى العلاج ويريد أن يُراسلك على بريدك الإلكترونى

رفعت كتفيها حائرة ولازال الشك يعبث بها وقالت بنظرات تائهة:

- ولكنى لا أملك واحدًا !

أشار لها هشام بيده أن تنتظر لثوانٍ، عاد سريعًا إلى الأريكة الخشبية حيث كانا يجلسان منذ قليل، حمل الحقيبة الجلدية التى تركها هناك ثم عاد إليها وقدمها لها وعيناه تترجاها لأن تقبلها قائلاً:

- هذا حاسوب محمول تستطيعين مراسلته عن طريقه،

ثم تابع بحرج بالغ ظهر جليًا فى حركة عينيه التى انخفضت قليلاً للأسفل ويديه التى لم تعد ممتدة باستقامة نحوها:

- صحيح هو مُستعمل، وليس به إمكانيات كبيرة، ولكنه يفى بالغرض

أشار الطبيب للمرضة أن تأتى لتصحبها ولكنها غادرت بخطوات مترددة دون أن تلتفت، أطرق هشام رأسه أرضًا بإحباط وقد كان يتوقع رد فعل مختلف على ما قاله لها، ولو حتى ابتسامة صغيرة تبثه الأمل، وضع الطبيب راحته على كتفه وسار إلى جواره لخطوات قبل أن يقول بتفهم:

- ما رأيته حاليًا هو أفضل بكثير مما كنت أتخيل، كنتُ أعتقد أنها لن تنظر إليك بالمرة ولن تتفوه بكلمة معك وستتجاهلك كليًا، ولكن التفاعل الذى حدث منها أيًا كان هو علامة مبشرة للغاية على تقبلها لك بحياتها، بل وتلومك أيضًا، وهو مؤشر قوى لبداية تسامح بقلبها تجاهك، اصبر قليلاً والتزم بما اتفقنا عليه فى كل زيارة قادمة ولا تتعجل خروجها من هنا .

***

كان يعلم جيدًا إلى أين تأخذه خطواته ذاك النهار، حيث الهدوء والصمت اللانهائى، حيث الماضى الذى يحن إلى أيامه، ويتمنى أن يمرق شيئًا منه إلى حاضره، الماضى الذى مر من بين أصابعه وهو عالق فى التمنى، مُنتظر أن تُحل مشاكله تلقائيًا دون تدخل منه !، تلك المشاكل التى تلوى حلقه الآن بمرارتها حيث اللا أسف، أللا رجوع، حيث لا مفر من الوقوف امام قبرها بخشوع، والدعاء المفروط من عِقد الدموع، مُحاولاً بجهد سحب أخطاءه من فوق قمم جبالها، تحريرها من عقالها، ربما من بين ندباتها تظهر حلولها .

وقف أمام القبر لايدرى ماذا يقول، إلتصقت الكلمات بحلقه، منذ متى وهو يفكر قبل أن يتحدث إليها، أليس الحديث إليها سهلاً الآن؟!، فلماذا يهاب، لم يعد الآن وجود للحد الفاصل بينهما، الحد الوهمى الذى اكتشف أنه كان يبنيه بنفسه ويحرص عليه، ابتسم ساخرًا

من نفسه وهو يهمس مُعترفًا بذاك لنفسه قبلها ويهبط على ركبتيه أمام حروف اسمها المنقوشة فوق شاهده:

– دومًا ما كنتُ أراكِ أفضل بكثير، بكثير مما كنت أبوح به أمامك. كنتُ أشعر بأنكِ تستحقين شخصًا أفضل، بأنك زائرة في بيتي، حبك لي كان أقوى من أن أستوعبه، من أن أتعامل معه بما يستحق، كنتُ أرى نفسي أقل بكثير من أن تمنحيني كل شيء كما كنت تفعلين. منحتيني كلك وضننتُ عليكِ ببعضي، لا لبخلٍ مني، ولكن لخوفي من أن يكون هذا البعض لا يليق بكِ، وبدلاً من أن أبذل الجهد لتحطيم هذا الحد الوهمي، استسلمت لسلبيتي وتركتك تعانين متصورة بأنني لا أحبك.

مال بزاوية حادة بجذعه نحو الجزء المُرتفع من القبر، حتى تغبر طرف أنفه بترابه هامسًا بأذنه كما لم يفعل يومًا مع من تسكن وحشته، متوهمًا سماعه لخفقات قلبها:

– صدقيني أحببتك يا هالة، الآن أمنح عمري لأي وسيلة مُستحيلة تجعلك تُصدقين، بينما كانت الوسائل كثيرة أمامي من قبل وأنتِ على قيد الحياة فلم أعرها اهتمامًا يليق بكِ، أزاح موتك رداء صمتي وظهر خذلاني المُتكرر لكِ بوضوح يُعريني ويكشف مساوئي، أنا أطلب الصفح منكِ، متأخرًا جدًا أعرف، ولكن أن آتي متأخرًا خيرًا من لا آتي أبدًا.

سقطت دمعاته الصامتة فوق التراب الجاف أسفل وجهه، فتركته نديًا، بينما جذب بصره للأعلى أشعة الشمس التى بدأت تعلو من فوقه وتبعثه راحة دافئة فى قلبه، أعاد نظراته المُحملة بروحه إلى القبر من جديد وهو يستقيم قليلاً هامسًا:

– حبيبتى، علمتُ بأن الدموع والحسرة والندم لن تُفيدك، فأرجو ان يتقبل الله مني ما سأفعله لكِ من صدقات جارية، وهذا أقل ما أقدمه لكِ بعد أن فشلت بتقديم أبسط ما تتمنين فى دنياك، أبشرُكِ بأن بناتك تحسنتا كثيرًا وأصبحتا تقاربا فى حديثهما غيرهما من الأطفال، والعام القادم إن شاء الله ستكونان فى صفهما الأول فى المدرسة، أوقاتي التى كنتُ أبخل عليهما بها أمنحها لهما الآن بكل حب، سأحفر اسمك بقلبيهما إن شاء الله حتى لا تسجد إحداهما سجدة فى يوم منَ الأيام دون أن تتضرع إلى الله بالدعاء لكِ .

شعر بخطواتٍ تتقدم نحوه يتبعها كف ثقيلة استراحت على كتفه من الخلف، وبرد فعل تلقائي أخرجه من حالة الطوف التى كان يدور قلبه بها فى التو، انتفض ناهضًا مُلتفةً خلفه، فوجد امرأة عجوز سمينة تتوشح بالسواد وتغطي به نصف وجهها قائلة برجاء:

– رحمة ونور يابيه

***

لم تستطع رؤى أن تُنكر أن رسالته الأولى إليها والذى كان يرد بها على رسالة منها لتُعرفه بنفسها على استحياء؛ رفعت من معنوياتها إلى قمم الثقة التى لم تزورها يومًا، وكأنها منطقة ضبابية موضوع عليها للأبد لافتة ممنوع الاقتراب، خطر!، توقفت عيناها كثيرًا على كلماته عن إيمانه بموهبتها وقدرتها على تحمل مسؤولية عامودٍ كبداية لها ضمن عواميد التواصل مع القُراء بالمجلة، وعندما سألته عن مدى توافق ما يقوله مع حالتها العقلية وهل سيثق القُراء بها أم لا؟، قال لها حروفًا نقشتها فى قلبها بعد أن منحتها الشعور بالاختلاف الجيد، " الفرق بين الجنون والإبداع شعرة واحدة، العبقري مجنون بطبعه إلا أنه يُدرك ذلك ويقوم بتوجيهه داخل إطار إبداعى، وهذا هو الاختلاف ".

بعد تلك الكلمات قررت الموافقة على عرضه بالكتابة الحرة فى عامود خاص بها فى المجلة التى يكتب بها، وستكون كتاباتها تحت عنوان" قالت لي"، وعندما ناقشت الأمر مع طبيبها قال مُشجعًا:

– اسمعيني جيدًا يا رؤى، أنتِ الآن تخطيتِ مرحلة كبيرة فى طريق العلاج، تعرفين مرضك وتعرفين كيف تواجهيه بمقاومة تلك الهلاوس، لو اخترت الطريق السهل معكِ والذى يتبعه معظم الأطباء العرب بل والكثير من غير العرب أيضًا، لكنت منحتك الأدوية وتركتك تخرجين بعد أيام تصل بحد أقصى إلى الشهر من المصحة على مسئولية عائلتك وينتهى دورى بعد أن أنبه على

عائلتك بأنك لو توقفتِ عن تناول الدواء فسيعود المرض أقوى مما كان، وتظلين طيلة حياتك أسيرة تلك العقاقير التى لن تمنحك سوى البرودة مع زوجك وكثرة النوم والهدوء الخادع الأشبه بالمخدر، إلا أننى أستخدم معكِ الطرق الأصعب للعلاج ولكنها الأنفع لكِ فيما يخص حالة الفصام تلك. أنا أعتمد على قوتك فى الرغبة بالشفاء الكامل وقد توقفنا تدريجيًا عن الأدوية ومستمرين بالجلسات، وستظلين هنا فى المصحة حتى إذا أدى الأمر لعام أو اثنين، حتى تتغلبين عن الهلاوس والضلالات التى تعتريكِ وترفضيها بإرادتك وليس بتلك العقاقير. عندما تحدثت إلى الأستاذ عبد الخالق مروان شرحت له أن ما يدور بذهنك سيظل لامعًا متوهجًا مادام فى عقلك فقط، أما لو خرج على الورق، بل وتفاعل معه الناس وحدث خلاف ونقاش، سينطفىء من تلقاء نفسه ويذبل، نعم ربما لا ينتهى تمامًا ولكنه سيأخذ مساحته الخيالية التى توجد لدينا جميعًا مع الفروق الفردية طبعًا ولكنه فى كل الأحوال لن يتعداها. وافقى يا رؤى واكتبى وتحدثى إلى الناس بما تريته حتى لو كان هذيانًا !

حديث الطبيب، وإيمان الأستاذ عبد الخالق مروان بها ألهب حماسها، إلا أنه لم يمنع ذاك الخوف الدفين من الفشل. الفشل الذى كان يتجسد فى الضلالات الكثيرة التى تنتابها باستمرار والتى تتجسد لها بوالدتها وهى تقول بأذنيها " أنتِ فاشلة "، والخزى والأسف الذى تراه متجسدًا

فى وجه هالة التى تأتيها من عقلها لتهمس لها " هل ستسعدين بنجاحك بينما كنت أنا أتعذب "!، ثم يأتى والدها ليلاً بدماءه التى تقطر من حنجرته ليصيح بها زاجرًا " كيف تفعلين أمرًا دون موافقتى"!، وفى كل يوم تهمس لنفسها بأنهم ليسوا حقيقيون !

مع الوقت تعلمت بالطريقة الصعبة أن تتجاهل تلك الخيالات والأصوات، لأنها أدركت ببساطة أنها تنبع من عقلها فقط، ليست حقيقية، وكأن اللحظة الفارقة بعمرنا هى تلك التى نتوقف خلالها عن تنفس الزيف وفتح نافذة جديدة محملّ هواءها برياح التغيير، فوافقت وأرسلت له بريدًا إلكترونيًا تُعلن فيه موافقتها، فأجابها بسعادة أنه سيقدمها بنفسه للقُراء فى عدد المجلة القادم وهو يضمنُ لها بيقين أن طبعات المجلة ستنفذ من أجلها، من أجل تلك الكاتبة الغامضة التى كانت الأموات تراسله عن طريقها !.

***

لأول مرة تغمرها سعادة خالية من تأنيب الضمير على مدى سنوات عمرها وهى تُمسك بالمجلة بين يديها وتقرأ ما كتبه عنها بفخر، وهو يحكي قصة صمودها رغم كل ما عانته، ويعد قراءه بكاتبة صحفية ذات طراز فريد، قلمها لن يتقيد بقيود المنطق أو الواقع، وستتعامل مع رسائلهم على أن كل ما حواها حقيقي جدًا، مهما كان خياليًا جدًا !، بل وستجيبهم على تساؤلاتهم بخيال يفوق خيالهم بكثير .

وترقرق الدمع بعينيها عندما وصلت لآخر كلماته وهو يختم مقالته كاتبًا:

- واعرف أنها من النفوس الطيبة التى تغفر مهما قست عليهم الحياة وتنتظر الخير العميم الذى تدخره لها الأقدار.

عندها نهضت من فوق الأريكة الخشبية فى طريقها لغرفتها حيث الحاسوب المحمول وقد نسيت تمامًا هشام الجالس بجوارها والذى أحضر لها المجلة اليوم ومنحها إياها بابتسامة مُشجعة، ولكنها توقفت فجأة قبل ان تخط أول درجة من السُلم الحجرى القصير الذى يعلو أرض الحديقة الخضراء الندية، أصوات لعب جنى و لُجين هى ما جعلها تتوقف وتستدير نحوهما، حتى هذه اللحظة لا تُصدق بأنهما قد تغيرا تمامًا وكأن الحياة الطفولية الصاخبة قد دبت بهما من جديد، فرت دمعة رغمًا عنها من سجن جفنيها وهى تراقبهما وحينها شعرت بأنامل هشام تمسحها بخفة تشي بوقوفه قريبًا جدًا بجوارها، أسبلت جفنيها وهى تدفع عقلها بالنظر إلي الماضى نظرة محايدة تخصه هو وهالة، ثم رفعت عينيها بنادرة لم تصدر منها نحوه إلا اليوم وقالت بهدوء:

- أستحق بعض الوقت

ابتسم وهو ينظر إلى عينيها نظرة متوهجة مُفعمة بسطوع مُفاجىء لأشعة الأمل بمقلتيه فرفعت حاجبيها وتمتمت بدهشة:

- أنا لم أقل شيئًا، يستحق كل هذا،

قاطعها على الفور بشغف وليد للتو حاول التحكم به، مانعًا قدميه من الاقتراب تلك الخطوة الأخيرة والوحيدة الفاصلة بينهما:

- ليس لكلماتك فقط، بل لأن عينيك الشتوية قررتا أخيرًا العفو عني وأنهت خصامها الطويل لعيني.

ظلت تنظر إليه لثوانٍ محدقة به وكأنها لا تستوعب ما قاله، شعر هو بأن تلك الثوان دهورًا طويلة منتظرًا أحد ردود الأفعال الإنفعالية على كلماته، ولكنه وجدها أخيرًا تُرفرف بأهدابها سريعًا ثم تُطرق أرضًا وتلونت وجنتاها منذ أشهر بعد هجر طويل خلف الشحوب وقد أدركت للتو ما حدث من تقارب بينهما، وغمغمت بشيء ما فهمه هو على أنها تستأذن للانصراف وهى تخطو خطوات سريعة هابطة الدرجات القليلة، قاطعة الحديقة بسرعة يغلفها الإرتباك وتقترب إلى العدو مما جعله يتبسم وهو يستنشق الهواء بقوة ويملأ به صدره بتفاؤل لم يشعر به منذ شهور مضت، رفع وجهه للأعلى وقد بدأت قطرات المطر الخفيفة تهفت إلى جبينه فأعاد رأسه للوراء أكثر سامحًا لها بمحو ثقل أخطاءه المحفورة عن أرض ماضيه المُثخنة بالجراح.

أما رؤى فقدت أغلقت خلفها باب حجرتها التى تتشارك فيها مع مريضة أخرى، تلك المريضة الغامضة التى تُثير بداخلها الفضول لمعرفة حكايتها، وفى يوم ما ستكتب عنها. جلست أمام الحاسوب وبدأت تسطر أول كلماتها:

" اكتب إليكم أول كلماتى وأنا مازلت نزيلة المصحة النفسية أتلقى الجلسات، ليس الشعور بالتعافي هو فقط ما يمنحني القوة الآن لمواجهتكم، بل ربما الجزء المريض هو الذى يفعل، فالتعقل الشديد هو الذى يجعلنا نجْبُن أحيانًا !.

ساحكي لكم فى كل مرة بعضًا من خيالاتي، منها ماهو حدث بالفعل، ومنها ما لستُ مُتيقنة حتى الآن هل هو حقيقي أم لا وسأنتظر تعليقاتكم عليها، بحكايات مُشابهة، حكايات ومشاكل مطمورة تخشون البوح بها، فالكثير من البشر يقتات على الخشية!، يعيش بها، ويموت لو هُدد بكشف غطاءها .

حدثيني عنه وما تتمنين منه، وما تكرهين فيه، هو نصفك الآخر

حدثني عنها، أزفر بما يعتمل بصدرك لها، هى عالمك الآخر

أما ما سأكتبه الآن لكم فهى حكايتي أنا، قد تعتقدون أنها مجرد حكاية، وقد ترونها دعوة لفهم العالم الآخر" .

.. تمت بحمد الله ..

صدر للكاتبة :

أولا : الروايات الورقية :

ثانيا : الروايات الإلكترونية :

وَقالتْ لي!

تفحص الكاتب الصحفي عبدالخالق مروان المظروف بين يديه مندهشًا، ثم بدأ في فتحه وفض الأوراق منه وقراءة ما بين سطورها بفضول، حينها علم بأنه أمام حالة فريدة من نوعها تحتاج إلى تأمل وتمهل لفك أحجيتها وألغازها قبل الحكم عليها، وقد تيقن من ذلك عندما وصلت عيناه لآخر سطور مقدمة الأوراق وقد كتبت له الراسلة فيها: "وسأظل أرسل لك تفاصيل زياراتها لي في شقتي المهجورة، وفي كل ظرف سأرسله لك ستجد عليه عنوانًا يتوسطه من الخارج وهو نفس العنوان الذي كتبته على الظرف الذي بين يديك الآن، (وقالت لي)، لا أريد منك تصديقي، أريد فقط أن تنشر شكواها، لعل روحها تهدأ قليلًا وينقطع شبحها عن زيارتي"!.



غلاف: إسلام مجاهد
الغلاف الخلفي: م. فاطمة الجندي

عصير الكتب